الإسلام والغرب

جدل الصراع في التاريخ والواقع

الدكتور رمضان عبد الله شلّح



مؤسسة الأقصى الثقافية

الإسلام والغرب

جدل الصراع في التاريخ والواقع

الإسلام والغرب

جدل الصراع في التاريخ والواقع

د. رمضان عبد الله شلّح



مؤسسة الأقصى الثقافية

مؤسسة الأقصى الثقافية

بيروت – لبنان

E-mail: alaqsacf@gmail.com

مختارات

- **الإسلام والغرب، جدل الصراع في التاريخ والواقع**
- **محاضرة**

- **طبعة ٢٠١٨م / ١٤٣٩هـ**

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

أما بعد...

عندما نقدم محاضرة للدكتور رمضان عبد الله شلح، فهذا شرف كبير لنا، ومجرد ذكر الاسم بحد ذاته كافٍ للتقديم، فالدكتور غني عن التعريف. وهو رجل علم وفكر، بحر في الثقافة، وعلى رأس حركة فلسطينية كفاحية تخوض أعقد نضال، وأشده حاجة إلى الوعي والإيمان.

ونظرًا لأهمية ما تضمنته المحاضرة ولخطورة محتواها، ارتأينا أن نمهّد لها بهذه المقدمة، حتى ولو كانت بهذا القدر من التواضع.

يشير الدكتور رمضان إلى مسارين للأمة، هذا رغم التأثير المتبادل بين كلا المسارين؛ المسار الأول يرتبط بعلاقتها مع ذاتها، والمسار الآخر يتصل بعلاقتها مع خارجها.

وكان تركيزه كما نوه فعلاً على الشق الخارجي، والذي يقع في قلبه بتعبير القرآن الكريم، الروم، أو كما نقول راهنا الغرب وحضارته التي أُخضع العالم تقريبًا لتأثيراتها لدرجة أفقدت كثيرًا من الأمم والشعوب هويتها، واستلبت شخصيتها.

إن محور المحاضرة الرئيس يدور حول الغرب الذي أغار على الإسلام والمسلمين، وحول الذين أثبتوا - بالرغم من ضراوة الغارة المتصلة، وما تبدت به عبر الزمن من أشكال وأساليب وطرق توضحها المحاضرة - أنهم عصيون على الانثناء والتذويب في حضارة الغرب والخضوع لإرادته، بل إنهم لا يزالون يمتلكون ذاتية راسخة وقوية، ولديها إرادة التحدي والطموح. فماذا يفعل الغرب؟!. إلا أن الأمر الذي ينبغي الإشارة إليه، وهو ما تبرزه المحاضرة بوضوح كافٍ، أن المحاضر لم يكن يقصد باستعراضه وتحليله زيادة معرفتنا بحد ذاتها، على أهمية هذا القصد، بل بغية الدفع باتجاه بلورة مشروع مواجهة الأمة لهذا الغرب الهاجم، مشروع يرتكز على الوعي والإيمان والإرادة، يدرك أن مدخله التاريخي الأساس وبوصلته هو العمل على تحرير فلسطين.

ولما تتمتع به هذه المحاضرة كما قلنا من أهمية وراهنية، فما زالت الهجمة الغربية مندفعة، وما زالت "إسرائيل" تمثل مقدمتها الملتهبة، ارتأينا، في مؤسسة الأقصى الثقافية، نشرها توخيًا منا لتعميم الفائدة، هذا بالرغم من مرور ما يزيد عن عقد من الزمن على إلقائها. وارتأينا أن ننشرها كما هي، من دون تصرف.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مؤسسة الأقصى الثقافية

٣٠ تموز ٢٠١٨م / ١٧ ذو القعدة ١٤٣٩هـ

الإسلام والغرب
جدل الصراع في التاريخ والواقع*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد...

قد لا يكون العنوان الذي اخترته لهذه المحاضرة ملائمًا بدقة، لأن أصل الفكرة التي أود شرحها هي الحديث عن مسيرة الإسلام وحركته في التاريخ في مواجهة الخارج. أي أننا نميز بين مسارين لحركة الإسلام منذ نزول الوحي بالقرآن في غار حراء حتى هذه اللحظة:

المسار الأول، هو الحراك الإسلامي الداخلي، والنمو والتطور الذي طرأ على الجماعة / الأمة التي أنشأها الإسلام من العهد النبوي إلى عهد الخلفاء الراشدين، وما تلاه من دول إسلامية مركزية كالدولة الأموية، ثم العباسية، ثم العثمانية، وغيرها من الدول التي قامت في أزمنة وأماكن مختلفة. ودراسة حركة الإسلام وتطوره على هذا الصعيد تشمل التاريخ

* بناءً على دعوة من «المنتدى الحضاري» في دمشق، بتاريخ ٥/٦/٢٠٠٠، حاضر الدكتور رمضان عبد الله شلّح، الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، حول: الإسلام والغرب، جدل الصراع في التاريخ والواقع.

العقائـدي والسياسـي، والاجتمـاعي والاقتصـادي، والثقـافي والحضـاري، والتفاعل والتدافع الذي شهدته الأمة بكل مكوناتها من دول وفرق ومذاهب وغيره... هذا المسار في نمو حركة الإسلام وتطوره ليس موضوع حديثنا في هذه المحاضرة.

سنتناول المسار الثاني، الذي يتعلق بحركة الإسلام ومسيرة صعوده وهبوطه في التاريخ، في مواجهة القوى الخارجية. ونحن ندرك أن العامل الخارجي والعامل الداخلي، في حركة نمو الإسلام وتطوره، مرتبطان ويؤثر كلاهما في الآخر. ولعل العامل أو الحراك الداخلي في التاريخ الإسلامي هو الأساس، وهو الأخطر والأهم، لكنه ليس موضوعنا في هذه المحاضرة... موضوعنا هو العامل الخارجي، أو الخارج في مواجهة الإسلام. ونعني بالخارج هنا الغرب. الحضارة العالمية المهيمنة اليوم هي الحضارة الغربية، والنظام الدولي بكل مكوناته في قبضة الغرب. والنظام الإقليمي وما يسمى بمنطقة الشرق الأوسط مرهون للسياسات الأميركية والقرار الغربي، وقضية فلسطين، وبالأحرى المأساة الفلسطينية، صناعة غربية بامتياز.

وفي مستهل حديثنا لا بد أن نوضح ما هو هذا الغرب الذي يمسك بخناق العالم بهذه الطريقة؟

في اللغة، "الغرب" كلمة لها مدلول جغرافي تشير إلى جهة، أي عكس "الشرق". أما في المعنى الاصطلاحي، فالغرب اليوم هو منظومة كاملة وكتلة حضارية عملاقة، فيها دول وحكومات وشعوب وجيوش

ومنظمات ومؤسسات وبنوك وشركات وأسواق عالمية، وفوق هذا والأهم هناك "الثقافة الغربية" ومنظومة القيم الغربية بكل مخزونها وإرثها الديني والتاريخي، وإمكاناتها وأدواتها الحديثة والمعاصرة.

الغرب اليوم رأس حربته والقوة العظمى فيه هي الولايات المتحدة الأميركية، التي تسعى لفرض هيمنتها على العالم وتحقيق مشروع، وليس حلم، الإمبراطورية الأميركية العالمية. ومشروع الهيمنة هذا ليس جديدًا، فهو حاضر في السياسة الأميركية منذ زمن، وهو جوهر العولمة، ويمكن أن يتحقق بالأدوات الاقتصادية والثقافية، أي بغرض الثقافة الأميركية على العالم، أو ما يعرف بثقافة البيبسي والكوكاكولا وأفلام هوليود.

الجديد هو العودة إلى مفهوم السيطرة الاستعمارية، أو العودة إلى مفهوم "الاستعمار المباشر". لقد خرج "الغول الأميركي" من وراء البحار، ودق طبول الحرب، والوجهة هذه المرة، ومن جديد، "الشرق الإسلامي". والعنوان المباشر أفغانستان، وهناك تهديد للعراق. والهدف المعلن هو الرد على هجمات الحادي عشر من سبتمبر، باعتقال أسامة بن لادن أو قتله، وإنهاء حكم طالبان وتنظيم القاعدة.

الآن حديث العالم كله أميركا قادمة، الطوفان قادم، والإعصار سيقتلع الجميع. هناك حالة هلع وذعر تجتاح المنطقة، والكل يقول لنا عليكم أن تنحنوا للعاصفة، وعلى الجميع أن يقدم الاعتذار باسم الإسلام لأميركا (الوحش الكاسر) التي تبدو "كالنمر الجريح" بعد ضرب برجي مركز التجارة العالمية، رمز قوتها الاقتصادية والحضارية.

وأمام هذا الترهيب لا بد أن نسأل:

هل فعلاً أن خروج أميركا للحرب على ما تسميه "الإرهاب الإسلامي"، هو ردة فعل على أحداث ١١ سبتمبر؟

وهل فعلاً أن ما نطق به الرئيس الأميركي جورج بوش، كان زلة لسان، عندما ذكر كلمة "الصليبية" في وصف حربه المعلنة على الإسلام الآن؟

الأمر بكل بساطة، بل بكل تأكيد، ليس ردة فعل، ولا زلة لسان!

هذا هو الغرب في نظرته إلى العالم، وموقفه تحديدًا من الإسلام ومن العرب والمسلمين. وهذا الموقف لن يغيره ذهاب بوش إلى المركز الإسلامي في واشنطن لتطييب خاطر المسلمين، أو تهدئة مشاعرهم!

ولا أريد في هذا الاستهلال أن أبدأ بالتاريخ القديم، لكن نزعة "السيطرة" و"الهيمنة" لدى الغرب، موجودة منذ القدم، ولا تخفى على أي دارس لتاريخ العالم، أو تاريخ المشرق على وجه الخصوص.

لقد خرج الإسكندر المقدوني، منذ القرن الرابع قبل الميلاد، كما جورج بوش الأميركي، وهو يحلم بعالم تصلح فيه كل الأرض، أو كل كوكبنا هذا، ملكًا له، وتحت سيطرته وسيطرة الحضارة الغربية التي كانت يومها الحضارة اليونانية. إن إدارة جورج بوش، وكل الحضارة الغربية الآن، الأميركية والأوروبية، تعتبر أنها مدينة للحضارة اليونانية وامتداد لها.

إن خروج أميركا للحرب أو الغارة على العالم الإسلامي اليوم، ليس مجرد ردة فعل. فالولايات المتحدة الأميركية والغرب كله، منذ انهيار الاتحاد

السوفييتي، وانتهاء ما سمي بالحرب الباردة، حسم أمره وأخذ قراره بأن العدو هو الإسلام.

وهنا يجب أن نشير أن الإسلام في الذاكرة الغربية، وفي الثقافة الغربية (المسيحية - اليهودية) كان دومًا في خانة العدو. لكنه الآن يختار كعدو في سلم أولويات السياسة الأميركية والغربية في إدارة شؤون العالم. والذي يعيش في الغرب أو يتابعه باهتمام، يدرك الهوس الذي أصاب الغرب في قصة الإسلام، وبالذات من لحظة سقوط جدار برلين، أي قبل ١١ سبتمبر، حتى أصبح الغرب مريضًا بالرهاب أو الذعر من الإسلام؛ وهو فعلاً مرض نفسي يسمى "إسلاموفوبيا"، أي الخوف من الإسلام... صار الحديث عن "الخطر الإسلامي"، و"التهديد الإسلامي"، و"الإرهاب الإسلامي"، و"العنف الإسلامي"، و"الأصولية الإسلامية"، و"التطرف الإسلامي"، وكل شيء سيئ أو سلبي يمكن أن يلصق بالإسلام، صار مادة أساسية في كل مكان... في الصحافة والإعلام، في الجامعات والمعاهد والمدارس، في الكنائس، في مراكز البحوث والدراسات، في الحكومات، في السياسات، في السينما والمسرح، في الشوارع والبيوت، في كل مكان وكل زاوية في عواصم الغرب ومدنه ومجتمعاته!

لم تكن حالة العداء هذه مجرد موجة إعلامية عابرة، بل كان هناك تأصيل فكري، وطرحت نظريات تبرر العداء والكراهية للإسلام.

كتب فوكوياما الأمريكي الياباني الأصل كتابه الشهير "نهاية التاريخ"، الذي هلل فيه لانتصار الليبرالية والرأسمالية الأميركية في الحرب

الباردة، وأن قطار البشرية وصل إلى محطته الأخيرة ليرسو في الحضن الأميركي والثقافة الأميركية. وهي نظرية تعني أن النموذج الأميركي هو الذي يجب أن يملأ الفراغ الذي نشأ عن انهيار "العدو الشيوعي الأحمر"، ولأن الغرب لا يستطيع أن يعيش بدون عدو، وبدافع الخشية من الانبعاث الإسلامي الذي يشهده العالم، ظهر الحديث عن "العدو الأخضر" كما سماه الغرب، أي الإسلام!

كان هذا واضحًا في نظرية "صدام الحضارات" التي طرحها الأستاذ الجامعي "صموئيل هنتنجتون"، والتي تحدث فيها عن تحالف محتمل بين الإسلام والكونفوشوسية والبوذية، أي مع الحضارات والديانات الشرقية، كي تشكل محورًا لصدام حضاري مع الحضارة الغربية ورأس حربتها أميركا.

لسنا بصدد دراسة أو مناقشة نظرية "صدام الحضارات" هذه، لكن هناك ملاحظتان مهمتان لا يمكن القفز عليهما:

أولاً: إن هنتنجتون لم يأتِ بجديد، وهو تلميذ نجيب للاستشراق القديم، ولأدبيات بعض الرحالة الغربيين، لكن ملهمه الأكبر الذي أوحى له بنظرية "صدام الحضارات" هو برنارد لويس اليهودي البريطاني – الأميركي الذي تشهد كتاباته ومواقفه على مدى حقده وكرهه للإسلام والعرب والمسلمين.

ثانيًا: إن كثيرين من العرب والمسلمين الذين تصدوا للرد على أطروحة هنتنجتون، التي تتحدث عن صدام "افتراضي" بين الإسلام والغرب، وقالوا بأن الإسلام ليس دين صدام، ولن يكون هناك صدام

حضارات، ينسون أننا منذ قرون ضحية عدوان "واقعي" من الغرب على الإسلام والمسلمين، وما زال الهجوم ضدنا مستمرًّا إلى اليوم!

للأسف، كثير من المرافعات والمساهمات الإسلامية في هذا الموضوع، والتي صدرت من باب الدفاع عن الإسلام، أظهرت وكأن المشكلة فينا وفي إسلامنا، وعلينا أن نطمئن الغرب ونعتذر له!

لا يقف الأمر في الغرب اليوم عند النظريات، أو الدعاية الإعلامية... "صدام الحضارات" في ظل "المحافظين الجدد" في البيت الأبيض والإدارة الأميركية أصبح إستراتيجية وبرنامج عمل، في التعامل مع العالم الإسلامي.

المحافظون الجدد هم سياسيون ومستشارون وخبراء في مراكز القرار في واشنطن، لكنهم من اليمين المسيحي، من "الإنجيليين" الذين يرون في قيام إسرائيل تحقيقًا لنبوءة الإنجيل، وأنهم سيحتفلون بأورشليم الجديدة التي ستنبعث بهزيمة الإسلام! أتباع الكنيسة الإنجيلية في الولايات المتحدة يزيدون عن ٦٠ مليون أو أكثر. وهؤلاء هم جمهور ما يعرف اليوم "بالمسيحية الصهيونية" التي لا عمل لها سوى الدعاية المستمرة ضد العرب والمسلمين، وحشد الدعم للكيان الصهيوني.

اليوم، هؤلاء حوّلوا الولايات المتحدة إلى دولة دينية، "مسيحية – يهودية" يحكمها المحافظون الجدد الذين يريدون نشر الخراب في العالم، وما يسمى الفوضى الخلاقة، حتى يعجلوا بظهور المسيح المنتظر. إنهم يعتقدون أن معركة "هر مجيدون"، كما هي في العقيدة اليهودية والمسيحية،

على الأبواب. هكذا يعتقد بوش ومن قبله ريجان نسب إليه أنه قال: "ربما نكون نحن الجيل الذي سيشهد معركة هر مجدون". وعندما وقعت حرب الخليج عام ١٩٩١ قال بعض الحاخامات اليهود إنها مقدمة لمجيء المسيح المنتظر. وفي معتقدهم أن هذه المعركة ستكون في فلسطين، في منطقة مجدو، حيث سيقع صدام بين قوى الشر والخير. وأميركا الآن حددت قوى الشر بحديثها عن محور الشر، وهي تظن أن الغرب هو الخير المطلق، والإسلام هو الشر المطلق. لذلك، المعركة الفاصلة في نظرهم ستكون ضد "إسرائيل"، وسيهزم اليهود، ثم يأتي المسيح المنتظر ليعاقب الأشرار (المسلمين) ويهزمهم!

هذه الأفكار لم ينجُ منها كثير من الرؤساء الأميركيين. وهي ليست معتقدات كنسية أو تبشيرية من الغرب، بل أخذت أبعادًا فلسفية، فالمنظر الأكبر والمفكر الأول "للمحافظين الجدد" هو ليوشتراوس الألماني الذي هاجر من ألمانيا وهرب من النازية واستقر في أميركا، يعتبر أن أميركا قوة عظمى، وأن رسالتها وواجبها أن تحارب الشر العام. وشعارهم: "إما أن تكون معنا، أو ضدنا". وهذا يستدعي تدمير كل أشكال المقاومة للمشروع الأميركي، والهيمنة الأميركية على العالم.

إذًا، السلوك الأميركي ليس رد فعل على أحداث ١١ سبتمبر، ولا حديث بوش عن "الصليبية" زلة لسان. بالأمس القريب تحدث مجرمو الحرب في البوسنة والهرسك وكوسوفو عن الصليبية في حرب الإبادة التي شنوها على المسلمين في قلب أوروبا، ومارسوا أبشع أنواع التطهير العرقي،

والجرائم ضد الإنسانية. رادوفان كاراديتش قائد صرب البوسنة قال: "لو كان الأمر لي لما توقفت في مكة". ووزير الإعلام الصربي قال: "نحن طلائع الحروب الصليبية الجديدة".

إذًا، عندما يتحدثون عن حروب صليبية جديدة، فهذا يعني أن هناك "حروبًا صليبية قديمة" يعرفها الجميع، ويعرفها العالم كله. وهم الذين أطلقوا عليها هذا الوصف (صليبية)، والمسلمون كما هو معروف أطلقوا عليها اسم "حروب الفرنجة". مع ملاحظة أن تسمية صليبية Crusade لم تظهر في المعاجم الغربية إلا في حدود القرن السابع عشر، حيث كانوا يستخدمون اسم "الحرب المقدسة" "Holy war".

أعود وأقول: إن حديثهم عن حروب صليبية جديدة يستدعي أن نعود لنقف على تاريخ حروبهم القديمة مع الإسلام، وهذا ما سنستعرضه في الجزء التالي من حديثنا بعد هذه المقدمة أو التمهيد للموضوع.

* * * * *

مع سقوط دولة الخلافة الأموية في الأندلس، وتفككها، واستمرار الصراع، وتعاقب الدول في المغرب، بدأ الهجوم الغربي المضاد بغزو صقلية على يد النورمديين سنة ١٠٦٠م، وانتهى الحكم الإسلامي منها عام ١٠٩١م.

كانت حروب الغرب التي سماها حروب استعادة الأندلس (ريكونكيستا) بالإسبانية، هي الأصعب والأكثر مأساوية.

في ظل ملوك الطوائف وصراعاتهم وتحالفاتهم مع المسيحيين ضد بعضهم البعض، وبعد توحيد مملكتي قشتالة وليون تحت عرش ألفونسو السادس، سقطت طليطلة عام (٤٧٨ هـ - ١٠٨٥م) التي كانت قلب الأندلس ومركز إشعاع حضاري لقرون، وحوّل مسجدها إلى كاتدرائية، صلى فيها ألفونسو قداس الشكر، وجعل قرطبة عاصمة لقشتالة.

كان المعتمد بن عباد من أشهر ملوك الطوائف بالأندلس. بعد سقوط طليطلة، قرر الاستعانة بيوسف بن تاشفين في المغرب العربي، لكن ملوك الطوائف حاولوا ثنيه عن ذلك، خشية أن يسيطر ابن تاشفين على الأندلس، فقالوا له: "المُلك عقيم، والسيفان لا يجتمعان في غمد". فأجابهم بعبارته التي ذهبت مثلاً "رعي الجمال خير من رعي الخنازير"!.

هبّ ابن تاشفين لنجدة المسلمين، ملبيًا طلب ابن عباد، وخاض المسلمون ضد الصليبيين موقعة "الزلاقة" الشهيرة، التي تعتبر واحدة من أشهر المعارك الإسلامية في التاريخ، وكانت يوم الجمعة في ١٢ رجب ٤٧٩هـ، الموافق ٢٧ أكتوبر/ تشرين الأول ١٠٧٦م، وقد انتصر فيها المسلمون انتصارًا عظيمًا، وشبهها البعض باليرموك والقادسية.

ومما يؤثر في هذه المعركة أن ألفونسو السادس كان يحمل الصلبان وصور المسيح، ويقول: بهذا الجيش أقاتل الجن والإنس، وأقاتل ملائكة السماء! وكلها طبعًا رموز وعبارات تدلل على طبيعة المعركة وهويتها. وتمضي عجلة التاريخ، وتسقط دولة المرابطين، وتقوم دولة الموحدين، مؤسسها محمد بن تومرت الذي ادعى أنه المهدي، وكان تكفيريًّا قاسيًا مع

مخالفيه... وتحل الهزيمة الساحقة بالموحدين وبالمسلمين في معركة العقاب (٦١٥هـ ـ ١٢١٧م)، حين هُزم الناصر لدين الله، وفر من أرض المعركة إلى أشبيلية!

وبعد هزيمة العقاب بأربع سنوات، وتحديدًا في سنة (٦٣٣هـ – ١٢٣٦م)، سقطت قرطبة عاصمة الأندلس الإسلامية لأكثر من ٥٠٠ سنة، وهاجر أهلها على وقع السقوط، تاركين خلفهم كل شيء. وبعد اجتياحها يوم الثالث والعشرين من شوال، تم تحويل مسجدها، وكان الأكبر في العالم، إلى كنيسة!

بسقوط طليطلة وقرطبة وغيرها من المدن الصغيرة في الأندلس، لم يبقَ إلا ولايتان فقط، غرناطة في الجنوب الشرقي، ولا تشكل أكثر من ١٥% من مساحة الأندلس، وأشبيلية في الجنوب الغربي ومساحتها حوالى ١٠% من البلاد!

عام (٦٣٥هـ – ١٢٣٧م) استقل بنو الأحمر بغرناطة، ودخلت مملكة غرناطة في معاهدة مع فرناندو الثالث، كانت بمثابة تحالف. وبموجب هذا الحلف، زحف جيش غرناطة المسلم مع الجيش الصليبي في "عاصفة" حربية، ليحاصروا أشبيلية المسلمة، حصارًا دام ثمانية عشر شهرًا! استغاث أهل أشبيلية يومها بأخوة الدين والإسلام، كي يرفعوا عنهم الحصار، ويكفّوا عن قتالهم تحت راية الصليبي، ولكن لا حياة لمن تنادي!

وفي ٢٧ رمضان ٦٤٦هـ، الموافق ١٢٤٨م، سقطت أشبيلية، ثاني أكبر مدن الأندلس، وأقوى حصون الجنوب، في يد الصليبيين، وكان فيها

مئات آلاف المسلمين، هجّروا وشردوا تحت سيف التحالف "المسلم – الصليبي!".

بعد سقوط أشبيلية، لم يبقَ إلا غرناطة التي صمدت لمدة ما يقرب من ٢٥٠ عامًا، لتكون على موعد مع السقوط المدوي في عام ١٤٩٢م.

كيف صمدت؟ وكيف سقطت؟

هذا ما سنوضحه بعد أن نعود أدراجنا قليلاً إلى الشرق، لنقف أمام أهم هجومين تاريخيين تعرض لهما الإسلام وعالمه، على منحنى صعوده من "غار حراء" إلى سقوط غرناطة: الغزو الصليبي لبلاد الشام، وسقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية على يد التتار.

* * * * *

مع نهاية القرن الخامس الهجري، أو في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، كان العالم الإسلامي مقسمًا بين الخلافة العباسية، ومقرها بغداد، لكن تحت سيطرة السلجوقيين (السنّة)، وبين الدولة الفاطمية (الشيعية الإسماعيلية)، ومقرها القاهرة. في ظل حالة الضعف والانقسام الإسلامي هذه، بدأ الغرب الأوروبي يفكر في غزو ديار المسلمين، فأطلق ما سمي بالحملات الصليبية.

لا شك أن هناك جملة من الدوافع والأسباب تقف وراء الحملات الصليبية، منها ما يتعلق بأوروبا وواقعها، بأبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لكن العامل الأهم يبقى هو الدافع الديني، والموقف من

الإسلام والمسلمين، والخشية على مستقبل المسيحية.

بعد الانتصار الكبير للمسلمين السلاجقة الأتراك بقيادة ألب أرسلان، والهزيمة الساحقة للروم البيزنطيين في معركة "ملاذ كرد" سنة ٤٣٦هـ - ١٠٧١م، بدأ الغرب يشعر بالرعب من المد الإسلامي الكاسح في مواجهة "المسيحية" في العالم. وقرر الغرب خوض الحرب بهدف الاستيلاء على القدس وبيت المقدس التي كانت تحت سلطة المسلمين. وقد برز العامل الديني في الحروب الصليبية، في أن الذي أخذ القرار أو زمام المبادرة واستنهض أوروبا للحرب الصليبية بحجة الاستجابة لطلب البيزنطيين ونجدتهم سنة (٤٨٧هـ - ١٠٩٥م) هو بابا الكاثوليك أوربان الثاني، الذي تربع على الكرسي الرسولي لمدة أحد عشر عامًا (١٠٨٨ - ١٠٩٩م).

لقد قيل الكثير عن خطاب البابا الذي ألقاه في مدينة كليرمون الفرنسية، الذي بدأ به حملته لحشد أوروبا. ووردت أجزاء متعددة من الخطاب في المصادر التاريخية للحروب الصليبية، لكن أبرز ما كان في الخطاب أنه قال للجمهور: "لست أنا، ولكن الرب هو الذي يحثكم". واستخدم نصًّا من إنجيل لوقا: "ومن لا يحمل صليبه ويأتي ورائي فلا يقدر أن يكون لي تلميذًا". ووعد كل من يشارك في الحملة بالمغفرة، وقال لهم في خطاب دموي رهيب: "إذا كان لا بد من الدماء، فاستحموا بدماء الكفار (يقصد المسلمين)، يا جنود النار أصبحوا جنود الله الحي"!. وأمام هذا المستوى من الإثارة والتحريض كان هتاف الجمهور الهائج ترحيبًا بالحرب، واستعدادًا لها: "الرب يريدها!".

كان الزحف الصليبي الأول شعبيًّا قاده بطرس الناسك عام (٤٨٧هـ - ١٠٩٥م)، الذي عاث هو وجمهوره من الفقراء والرعاع خرابًا ونهبًا في المدن التي مروا بها؛ في المجر والصرب واليونان وآسيا الصغرى، في طريقهم إلى القسطنطينية، لكن هذه الحملة (الشعبية) سُحقت على يد السلاجقة الأتراك. بعدها بدأت الحملات الصليبية النظامية التي خرجت فيها الجيوش بقيادة حكام وملوك الغرب... وقد استغرقت الحملات الصليبية إلى الشرق الإسلامي ثماني حملات، كانت أولاها في خريف (٤٨٩هـ - ١٠٩٦م).

وفي يوم الجمعة ٢٣ شعبان ٧٩٢هـ الموافق ١٥ يوليو/ تموز ١٠٩٩م احتل الصليبيون القدس، ودنسوا المسجد الأقصى، وذبحوا كل من فيه، وقتلوا كل أهل المدينة من المسلمين واليهود. وقيل إن عدد الضحايا كان بعشرات الآلاف، وإن الجثث والدماء بلغت حينها حتى الركب! كان الاجتياح الصليبي عاصفًا، ولم يستطع المسلمون دحر هذه الغزوة، أو منع احتلال بيت المقدس، إلى أن نهض القادة الثلاثة تباعًا، عماد الدين زنكي، ثم ولده نور الدين محمود، ثم القائد صلاح الدين الأيوبي، الذين حملوا راية الجهاد لمواجهة مشروع الغزو الصليبي.

بعد أكثر من ٩٠ عامًا على احتلال بيت المقدس حقق السلطان صلاح الدين انتصارًا ساحقًا على الصليبيين يوم ٢٥ ربيع الثاني ٥٨٣هـ الموافق ٤ تموز / يوليو ١١٨٧م. وبعد نصر حطين العظيم، زحف الناصر صلاح الدين نحو القدس، ودخلها محررًا في ذكرى الإسراء

والمعراج يوم ٢٧ رجب ٥٨٣هـ الموافق ٢ تشرين الأول / أكتوبر ١١٨٧م.

لا شك أن قصة انتصار حطين وتحرير القدس على يد صلاح الدين، قصة ينحني أمامها التاريخ، بل يسجد في محرابها، لما فيها من العبر والدروس إيمانًا وإسلامًا، جهادًا وفروسية، قيمًا وإنسانية، ولا غنى لعربي أو مسلم إذا أراد أن يقوى على مواجهة مرارة الواقع الراهن إلا أن يقرأ قصة الحروب الصليبية.

كان لسقوط القدس في يد المسلمين وقع الزلزال في أوروبا، فاستنفر الباب غريغوري الثامن عام (٥٨٣هـ - ١١٨٧م) الحملة الثالثة، التي قادها ملوك فرنسا وإنجلترا وألمانيا، وكان أبرزهم ملك إنجلترا ريتشارد الأول، الذي كان يلقب بريتشارد قلب الأسد. حاصر الصليبيون يومها عكا فسقطت في ١٨ جمادى الأولى ٥٨٧هـ الموافق ١٢ حزيران / يونيو ١١٩١م. وارتكب الصليبيون فيها مذبحة، بأمر من ريتشارد، حين قتلوا أكثر من ثلاثة آلاف أسير مسلم، الأمر الذي لم تكن تقره أية أعراف أو قوانين للحروب في العصور الوسطى.

زحف ريتشارد لاسترداد الساحل الفلسطيني من عكا حتى عسقلان، التي خربّها صلاح الدين وأحرقها، كي لا تصلح قاعدة للصليبيين. وزحف ريتشارد نحو القدس وحاول أن يستردها مرتين، لكنه لم يفلح، وقيل انصرف عنها "بلطف إلهي"! وعندما جاءت الأخبار إلى ريتشارد أن أخاه حنا يقود تمردًا ضده في أوروبا، أبرم مع صلاح الدين صلحًا عرف "بصلح الرملة"، وذلك في صيف (٥٨٨هـ - ١١٩٢م)، ثم غادر إلى أوروبا في (تشرين

الأول / أكتوبر ١١٩٢م).

لم يكن اتفاق الرملة أكثر من اتفاق هدنة لمدة ثلاث سنوات، بقيت القدس بموجبه تحت السيادة الإسلامية، واحتفظ الصليبيون بتواجدهم في الساحل إلى يافا. بعد صلح الرملة غادر صلاح الدين إلى دمشق، ولم يلبث أن توفي خلال أقل من عام، بعد إصابته بمرض الحمى لمدة ثمانية أيام، وكانت وفاته يوم ٢١ صفر ٥٨٩هـ الموافق ٥ آذار / مارس ١١٩٣م، عن عمر يناهز ٥٧ عامًا.

مات البطل محرر القدس، لكن الأمة التي أنجبته لم تمت، فاستمر الصراع، وتوالت الحملات الصليبية، وتواصل الجهاد الإسلامي، إلى أن تمت تصفية الوجود الصليبي في فلسطين على يد المماليك. كان ذلك عندما تهاوت حصون عكا أمام جيش مصر بقيادة الأشرف خليل، في يوم الجمعة ١٨ جمادى الأولى ٦٩٠ هـ الموافق ١٨ أيار / مايو ١٢٩١م، بعد حصار ٤٤ يومًا، وبعد احتلال صليبي للمدينة لمدة مائة عام، افتتحوها بالمذبحة التي أشرنا إليها.

كان يومًا مشهودًا من أيام الله والتاريخ، عندما استيقظ المحتلون لعكا على يد الجيش المصري يجتاح المدينة على وقع الطبول، فدب الرعب في قلوبهم، وعمت الفوضى المدينة، ففزع الصليبيون المذعورون إلى الشاطئ بحثًا عن قوارب تقلهم ليرحلوا إلى حيث جاءوا. وفي يوم الأربعاء ١٩ شعبان ٦٩٠هـ الموافق ١٥ آب / أغسطس ١٢٩١م، غادر آخر جندي صليبي فلسطين، لتنتهي بذلك أكبر ممالك الصليبيين في الشرق، والتي

شملت كل فلسطين التاريخية وأجزاء من الأردن وسوريا ولبنان وحتى سيناء. رحلوا عن فلسطين ليغيبوا عنها أكثر من ستمائة عام، لكن ليعودوا إليها في الغزوة الصليبية المعاصرة!

* * * * *

لم يكن الغزو الصليبي للشرق الإسلامي هو التحدي أو التهديد الوحيد، الذي واجه الإسلام على منحنى صعوده الحضاري، فقد كان اجتياح التتار أو المغول للعالم الإسلامي زلزالاً مدمرًا وكارثة لم يسبق لها مثيل، حتى قال المؤرخ ابن الأثير (ت. سنة ٦٣٨هـ) في وصفها: "لو قال قائل إن العالم منذ أن خلق الله تعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقًا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها أو ما يدانيها".

كان التتار قبائل متعددة من وسط آسيا، وموطنهم منغوليا بأطراف الصين، ويعرفون بالمغول أيضًا، لكن أصل اسمهم التتار، الذي يضم قبائل متفرقة من بينها المغول. وفي الفترة (٦٠٣ - ٦٢٤هـ / ١٢٠٦ - ١٢٢٦م) وحّدهم "تيموجين" الذي لقب نفسه باسم "جنكيز خان"، وتعني في لغتهم قاهر العالم، أو ملك ملوك العالم، وأطلق اسم قبيلته "المغول" على القبائل كلها، واتخذ "قره قرم" عاصمة له.

والتتار أو المغول صحراويون وثنيون كانوا يعبدون الأوثان والشمس والكواكب، وقد وضع لهم جنكيز خان دستورًا خاصًا اسمه "الياسق"، فيه مبادئ مستمدة من ديانات مختلفة. وهم دمويون في طبعهم، يحبون الحرب

والسلب والقتل وسفك الدماء.

في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، اكتسح المغول العالم الإسلامي كله، فاستولوا على بلاد ما وراء النهر وخراسان وفارس، وقضوا على الدول الخوارزمية، واستولوا على آسيا الصغرى، وكانوا كالإعصار يدمر كل شيء في طريقه، فأتوا على المدن الكبيرة وأبادوها، ورفعوا قممًا عالية من رؤوس القتلى وجثثهم، وصعدوا عليها، وأعلنوا فتوحاتهم وانتصاراتهم. لقد حولوا البلاد خرائب، والمدن مقابر!

واصلوا زحفهم صوب العراق، فهاجموا بقيادة "هولاكو" بغداد بجيش جرار، قيل إنه ضم في صفوفه، إلى جانب المغول، صينيين، وقوات من الفرنجة من إمارة أنطاكية الصليبية، والأغرب (بعض المسلمين!).

في الخامس من صفر ٦٥٦هـ، العاشر من شباط / فبراير ١٢٥٨م، دخل جيش هولاكو بغداد، عاصمة الخلافة لخمسة قرون، فدمروها وأحرقوها وسلبوها، وذبحوا أهلها وقتلوا الخليفة (المستعصم بالله) شر قتلة، إذ وضعوه في كيس وداسته الخيل ورفسه الجنود بالأقدام. واستمر السلب والنهب والقتل في العاصمة لمدة أربعين يومًا. وبلغ عدد القتلى في أقل التقديرات مئات الآلاف. كما دمروا مكتبة بغداد، أعظم مكتبة في العالم آنذاك، وألقوا بالكتب في نهر دجلة حتى قيل إن لونه تحول إلى الأسود من أثر مداد الكتب!

وقد روى بعض المؤرخين، كابن الأثير، بعض القصص والمخازي التي تصور حالة الهزيمة النفسية والرعب الذي دب في قلوب المسلمين

آنذاك، لدرجة أن تتريًا لا يحمل سلاحًا يقول للمسلم: "ضع رأسك على الأرض ولا تبرح"، أي انبطح ولا تتحرك، فيفعل ذلك إلى أن يرجع التتري ومعه السيف فيقتله! بل قيل إن تتريًا واحدًا كان يدخل قرية فيقتل كل أهلها ولا يجرؤ أحد أن يرفع في وجهه أي سلاح!!

وبالرغم من المبالغة في مثل هذه الأوصاف، إلا أن الخوف والرعب من التتار أصبح ظاهرة عالمية حينذاك. فقد نقل العلامة أبو الحسن الندوي رحمه الله في بعض كتبه عن مصادر أجنبية، كيف أن أهل السويد في أقاصي أوروبا عندما سمعوا بالزحف التتاري عبر روسيا، أصابهم الذعر والخوف، فامتنعوا عن الخروج لصيد الأسماك كعادتهم إلى سواحل إنجلترا.

فانظر، أين موقع السويد وسواحل إنجلترا من المناطق التي زحف إليها التتار؟!

أما المسلمون، فقد بلغ اليأس منهم مبلغًا، حتى جرى على لسانهم المثل القائل: "إذا قيل لك إن التتر انهزموا فلا تصدق"!. لذا فإن مؤلفي كتاب تاريخ "العصر الوسيط" الصادر عن جامعة كامبريدج لم يجدوا وصفًا لهول الحدث سوى أن قالوا: "إن السماء وقعت على الأرض، فدمرت كلها ما فيها"!

وقعت السماء على الأرض إذًا، وسقطت الخلافة العباسية سنة (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م)، لكن زحف التتار لم يقف عند حدود بغداد، بل واصلوا زحفهم فاحتلوا دمشق وحلب، أي سوريا، ودخلوا فلسطين فاحتلوا نابلس وغزة، إذ لم يقتربوا من الممالك الصليبية التي تحتل فلسطين.

وباحتلالهم لغزة أصبحوا على مشارف مصر وأبوابها، بل أرسلوا التهديد والوعيد لحكامها.

ردت مصر - المماليك بزعامة السلطان سيف الدين قطز (الخوارزمي الأصل)، وعبر الجيش المصري الحدود المصرية الفلسطينية، فاشتبكوا مع الحامية التترية في غزة وهزموا التتار، واتجهوا شمالاً إلى أن وصلوا سهل عين جالوت بالقرب من جنين. وفي يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ الموافق ٣٠ أيلول / سبتمبر ١٢٦٠م، كانت معركة عين جالوت بقيادة السلطان قطز التي انتصر فيها المسلمون انتصارًا مدويًا على التتار بقيادة "كتبغا" نائب هولاكو. وقد انتشرت أخبار عين جالوت يومها في الآفاق والديار التي ما زالت في قبضة التتار، فعمت البهجة وغمرت الفرحة قلوب المسلمين، ودب الرعب في قلوب التتار.

كانت دمشق أولى المحطات التي وصلها السلطان قطز، في الثلاثين من رمضان (ليلة عيد الفطر)، بعد خمسة أيام من انتصار عين جالوت، فاستقبل فيها استقبال الفاتحين العظماء، وزحفت جموع الناس رجالاً ونساءً وأطفالاً إلى الشوارع، التي ارتفعت فيها الرايات، وعلقت الزينات ابتهاجًا بهذا الحدث المهول. لقد هزم المسلمون "الجيش الذي لا يقهر"، جيش التتار الذي روّع البشر إلى أقاصي الأرض، ها هو الآن ينهار أمام جيش المسلمين. جيش مصر. وأين؟ على أرض فلسطين!

ولم يتأخر "الملك المظفر" قطز - كما صار لقبه بعد عين جالوت- في ملاحقة التتار، فأطلق جيشه بقيادة الظاهر بيبرس لملاحقة فلول التتار

وتطهير سائر البقاع الإسلامية منهم، فحرر المسلمون بلاد الشام كاملة في بضعة أسابيع، وتم توحيد مصر والشام من جديد في دولة واحدة تحت حكم المماليك.

وبينما كان قطز عائدًا إلى مصر بعد انتصاره على التتار، وبالقرب من الصالحية (محافظة الشرقية بمصر)، وفي ١٦ ذي القعدة ٦٥٨هـ الموافق ٢٤ تشرين الأول / أكتوبر ١٢٦٠م اغتيل على يد جماعة من المماليك لدوافع ثأرية، وبتدبير الظاهر بيبرس ومشاركته.

إنه التاريخ الحافل دومًا بمواطن النصر والغدر معًا!

أعلن الظاهر بيبرس نفسه سلطانًا لدولة المماليك، وخطب له بالمساجد في يوم الجمعة ٦ ذي الحجة ٦٥٨هـ ١١ تشرين الثاني / نوفمبر ١٢٦٠م. وكي يعزز بيبرس من شرعية حكمه بعد اغتيال قطز، عمل على إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، بعدما قضى عليها التتار في بغداد، وأعلنت الخلافة العباسية "الصورية" في القاهرة، في رجب ٦٥٩هـ - حزيران / يونيو ١٢٦١م. وقد تناوب عليها سبع عشرة خليفة، واستمرت أكثر من قرنين ونصف من الزمان طيلة الفترة (٦٥٩هـ - ١٢٦١ - ١٥١٧م).

دام عصر المماليك في العالم الإسلامي ما يقرب من ثلاثة قرون (٢٧٥ سنة قمرية). ويقسم تاريخهم إلى مرحلتين: المماليك البحرية (٦٨٤ - ٧٩٢هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٩م) وسموا بذلك منذ جلبهم الملك الصالح نجم الدين أيوب، فبنى لهم قلعة في جزيرة الروضة سنة ٦٣٨هـ - ١٢٤٠م؛

والمماليك البرجية (٧٩٢ - ٩٢٣هـ / ١٣٨٩ - ١٥١٧م) وأصلهم شراكسة، جلبهم السلطان قلاوون، وسموا بالبرجية لأن طائفة منهم سكنت في أبراج القلعة.

بدأ نفوذ المماليك في التاريخ الإسلامي من سنة (٦٥٨هـ - ١٢٥٩م) عندما انتصروا على التتار في عين جالوت، وطردوا الصليبيين من المشرق الإسلامي، وكان عصرهم من أغنى عصور النشاط الديني، عصر مشاهير العلماء والمجددين، أمثال الإمام النووي، والعز بن عبد السلام، وابن تيمية، وابن القيم الجوزية، وابن كثير، والإمام الذهبي، وغيرهم...

كان دورهم في الجهاد الإسلامي بارزًا وكبيرًا في محطات كثيرة، لكن سنن الله في الحياة والتاريخ سرت عليهم فأصابهم الضعف حين دبت بينهم الانقسامات والنزاعات التي قادت إلى أفول شمسهم ونهاية عصرهم.

كانت نهاية دولة المماليك على يد السلطان العثماني سليم الأول الذي انتصر عليهم في معركة مرج دابق قرب حلب، وقتل فيها السلطان المملوكي قانصوه الغوري في سنة (٩٢٢هـ - ١٥١٦م).

وقد واصل السلطان سليم زحفه نحو مصر، فانتصر على المماليك في معركة الريدانية في القاهرة، وقتل السلطان طومان باي شنقًا على باب زويلة؛ فتنازل آخر خليفة عباسي بالقاهرة "المتوكل على الله" عن الخلافة الصورية في سنة (٩٢٣هـ - ١٥١٧م)، وحمل الخليفة العباسي إلى إستانبول، وأصبحت مصر ولاية عثمانية.

* * * * *

لم تكن مسيرة التاريخ الإسلامي مسيرة صعود وهبوط لجهة المواجهة مع الخارج فقط، بل كانت مسيرة تدافع داخلي تداولت الأيام فيها بالدول والحكومات والإمبراطوريات.

مع نهاية القرن السابع الهجري، ونهاية القرن الثالث عشر الميلادي، قرن سقوط الخلافة العباسية في بغداد على يد التتار، كان ميلاد الدولة العثمانية في الجغرافيا والتاريخ الإسلاميين. عاشت الدولة العثمانية (سلطنة وخلافة) لأكثر من ستة قرون، وتبادل حكمها ٣٨ سلطانًا وخليفة عثمانيًّا.

ويعود أصل العثمانيين إلى قبيلة قابي، إحدى قبائل الغز التركية، وموطنهم الأصلي بلاد تركستان الواقعة في وسط آسيا. وقد هاجروا من موطنهم الأصلي بقيادة زعيمهم سليمان شاه نحو آسيا الصغرى، بسبب ضغط المغول. توفي سليمان عند مشارف حلب (غرق في نهر الفرات)، فانقسمت قبيلته إلى قسمين: قسم عاد إلى موطنه تركستان، وقسم واصل هجرته إلى شمال الأناضول بقيادة أرطغرل بن سليمان. كانت المنطقة تحت حكم السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد. انضم أرطغرل وقومه إلى السلاجقة في جهادهم ضد البيزنطيين، فكافأهم علاء الدين السلجوقي بأن أقطعهم إقليم المستنقعات (أسكي شهر) الواقع شمال غرب الأناضول لآسيا الصغرى على حدود الدولة البيزنطية، وترك لهم توسيع ممتلكاتهم على حساب البيزنطيين.

توفي أرطغرل في سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م فخلفه ابنه عثمان، وإليه تنسب الدولة العثمانية، ويعتبر مؤسسها وأول حكامها. وقد قام بتوسيع ملك

العثمانيين على حساب الروم البيزنطيين، ونودي به سلطانًا سنة (٦٩٩هـ - ١٢٩٩م)، وجعل مدينة "يني شهر" عاصمة له، واتخذ راية (علمًا) للدولة العثمانية، لا تزال حتى الآن علمًا للدولة التركية. ثم بنى جيشًا بقيادة ابنه أورخان، وسيره لفتح مدينة بورصة، وقد حاصرها لمدة طويلة، وحين فتحها أورخان كان والده عثمان على فراش الموت، فتوفي في سنة ٧٢٦هـ، أي أن حكمه دام ٢٧ سنة.

خلف أورخان والده، واتخذ من بورصة عاصمة له، وأسس جيش الانكشارية، وتمكن من عبور مضيق الدردنيل إلى البر الأوروبي، حتى اقترب من القسطنطينية. وقد استمر حكمه لمدة ٣٥ سنة، حيث توفي سنة ٧٦١هـ.

توالى السلاطين من بعده على حكم الدولة، فجاء ابنه مراد الأول الذي فتح أدرنة وجعلها العاصمة، واستولى على صوفيا عاصمة البلغار وسلانيك اليونانية، وانتصر على الصرب وقتل ملكهم وأخذ معظم بلادهم، واستشهد بعد أن استولى على أملاك البيزنطيين في آسيا الصغرى. بعد استشهاده سنة ٧٩٢هـ خلفه ابنه يزيد الأول الذي واصل الجهاد وحاصر القسطنطينية، فسيّرت أوروبا، وبتحريض من البابا، حملة صليبية ضخمة من عدة دول لقتاله سنة ٧٩٨هـ - ١٣٩٦م، فألحق بهم هزيمة نكراء. وفي عهده تعرض العالم الإسلامي لعاصفة جديدة من التتار، ففي سنة ٨٠٣هـ - ١٤٠٠م غزا التتار بقيادة تيمورلنك بلاد الشام، ودمروها وسحقوا الجيش المملوكي المدافع عن البلاد. وفي سنة ٨٠٥هـ - ١٤٠٢م زحف تيمورلنك

لقتال العثمانيين، وانتصر عليهم عند أنقرة، وأسر السلطان بايزيد الذي مات في السجن في العام نفسه.

أعاد تيمورلنك قبل موته في سنة (٨٠٨هـ - ١٤٠٥م) الإمارات الأناضولية إلى الأوروبيين، وانفصلت إمارات أوروبية عن الدولة، وهي البلغار وصربية والألبان، فتفككت الدولة العثمانية الناشئة، وتقطعت أوصالها. وبعد وفاة السلطان بايزيد الثاني اختلف أبناؤه على السلطة، فتنازعوا وتقاتلوا لمدة ١١ سنة، حتى استطاع محمد أن يتغلب على إخوته، ويستحوذ على السلطة. وقد تفرغ لقمع الفتن الداخلية، وأعاد توحيد الدولة، وأسس لصعودها من جديد. وجاء من بعده ابنه مراد الثاني الذي حاصر القسطنطينية، وأعاد كل الكيانات المنفصلة إلى حظيرة الدولة، واستعاد الإمارات الأوروبية: البلغار، والصرب، والأفلاق، وأخذ ألبانيا.

بعد وفاة السلطان مراد، كان العثمانيون على موعد مع قائد من طراز مختلف؛ إنه السلطان محمد (الابن الثاني لمراد) الذي تمرس في الحكم والقتال في حياة أبيه الذي توفي في سنة (٨٥٥هـ - ١٤٥١م)، فتسلم محمد الحكم من بعده.

كان الإنجاز الأعظم في حياة السلطان الشاب والدولة العثمانية منذ نشأتها، والذي أهدته للإسلام وأمته هو فتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية التي دامت لأكثر من أحد عشر قرنًا وانتهت بهذا الفتح المبين، الذي لقب السلطان محمد من بعده بمحمد الفاتح. أعد محمد الفاتح لهذا الحدث ما استطاع من قوة، فعزز جيشه حتى بلغ ما يقرب من

ربـع مليـون جنـدي، وجهـزه بـأقوى الأسـلحة المتاحـة يومهـا، وعلـى رأسـها المدافع العملاقة التي عرفت "بالمدفع السلطاني" التي صنعها لهم المهندس المجري أوربان، كما عزز الأسطول البحري، واهتم بالتعبئة والإعداد النفسي والديني للمقاتلين بالحض على الجهاد والشهادة في سبيل الله.

فـي ربيـع سـنة ٨٥٧هـ - ١٤٥٣م زحـف جـيش الفـاتح نحـو مدينـة القسـطنطينية وحاصـرها، وبعـد سـتة أسـابيع مـن الحصـار أرسـل السـلطان رسـالة إلـى الإمبراطـور قسـطنطين عـرض عليـه أن يسـلم المدينـة لـيحفظ أرواحهـا ولهـم الأمـان، فـرفض الإمبراطـور، وقـال إنـه سـيدافع عـن القسـطنطينية حتـى آخـر نفـس فـي حياتـه. وعنـدما بلغـت رسـالته السـلطان الفاتح قال كلمته الشهيرة: "حسنًا، عما قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش، أو يكون لي فيها قبر"!.

وصبيحة يوم الثلاثاء، ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ أيار / مايو ١٤٥٣م، وبعد حصار دام ثلاثة وخمسين يومًا، دخل جيش الفاتح المدينة من كل فج، وقاتل الإمبراطور قسطنطين كما وعد حتى قتل، ودخل المسلمون المدينـة، وعلـت رايات الإسـلام فـي كل مكان، ودخل السلطان الفاتح كنيسـة آيا صـوفيا، وأعطـى الرهبان والنـاس مـن النصـارى الأمـان، مظهرًا سماحة الإسلام ورحمته، وارتفع صوت الأذان فوق الكنيسة إعلانًا بجعلها مسجدًا، وسميت المدينة "إسلامبول"، أي مدينة أو عاصمة الإسلام، ثم حرفت إلـى إسطنبول التـي ظلـت عاصـمة الدولـة العثمانيـة إلـى لحظـة سقوطها في الربع الأول من القرن العشرين.

كان فتح القسطنطينية حدثًا إسلاميًّا عالميًّا، حقق ما بشر به النبي ﷺ حين قال فيما رواه أحمد: "لتفتحن القسطنطينية، فنعم الأمير أميرها". وقد حاول المسلمون - كما ذكرنا- فتحها منذ عهد معاوية، ومن جاء بعده من حكام بني أمية، وكرر العباسيون من بعدهم في زمن المهدي وهارون الرشيد المحاولة فلم يحالفهم جميعًا التوفيق، إلى أن تمكن محمد الفاتح من تحقيق هذا الانتصار العظيم، الذي اعتبره المؤرخون نقطة فاصلة في تاريخ العالم، انتهت بها العصور الوسطى، وبدأت العصور الحديثة في الغرب والعالم.

لم تكن نهاية الإمبراطورية البيزنطية أمرًا هينًا على العقل والضمير الغربيين، لذلك قيل إنه عندما سمعوا خبر وفاة السلطان الفاتح في ٤ ربيع الأول ٨٨٦هـ الموافق ٣ أيار / مايو ١٤٨١، دقت أجراس الكنائس في أوروبا، بأمر من البابا، لمدة ثلاثة أيام تعبيرًا عن الفرح والسرور!

مات محمد الفاتح، وقد مهد الطريق للسلاطين من بعده ليواصلوا مسيرة صعود الفتح الإسلامي، وتوسيع حدود الدولة العثمانية وأقاليمها... إلا أنه في عصر بايزيد الثاني (٨٨٦ - ٩١٨هـ / ١٤٨١ - ١٥١٢م) ثامن سلاطين الدولة العثمانية، وابن محمد الفاتح، كان الإسلام، وفي بقعة أخرى، على موعد مع كارثة سقوط غرناطة التي نعود هنا للحديث عنها قبل أن نستأنف حديثنا عن الصعود العثماني.

* * * * *

سقوط غرناطة

كـان عـام ١٤٩٢ نقطـة فاصـلة فـي تـاريخ الإسـلام والعـالم، لـذلك اعتبرنـاه فـي هـذه القـراءة لمسـيرة التـاريخ نقطـة انكسـار المنحنـى، وبدايـة الانحدار والهبوط... كيف يكون ذلك والعثمانيون يواصلون زحفهم، ويدقون أبواب العواصم الأوروبية عامًا بعد عام؟!

المسألة ببساطة هي كما قال بعض العلماء: إن سقوط غرناطـة كـان تعبيرًا عن "زوال الملـة" لا "زوال الدولـة"، كما حدث مـع حدث الأمويين أو العباسيين أو غيرهم. بسقوط غرناطة خرج الإسلام من الأندلس من التاريخ والجغرافيا، أو فقد الأرض والإنسان هناك.

كيـف حـدث هـذا؟ الحكايـة فـي التـاريخ فصـولها طويلـة؛ لكنهـا حبـة المسبحة التـي صـمدت لقرنين ونصف القرن من الزمان، بعد انفراط عقد المدن الإسلامية الأندلسية واحدة تلو الأخرى، كما أشرنا من قبل.

بعد عشر سنوات على سقوط قرطبة، وقبل عامين من سقوط إشبيلية (٦٤٣هـ - ١٢٤٦م) عقد فرديناند الثالث، ملك قشتالة، صلحًا مـع حـاكم غرناطـة محمـد بـن الأحمـر، الـذي قاتـل تحـت رايـة الصـليبيين ضـد إخوانـه المسلمين فـي إشبيلية!

خـلال تلـك الحقبـة مـن الـزمن، تنـاوب الملـوك والأمـراء علـى حكـم غرناطـة، واختلفت علاقاتها مع الممالك الصليبية، لكنها كانت تدين غالبًا بالطاعة لمملكة قشتالة.

كانت غرناطة ملجأ للمسلمين الفارين من سائر المدن الأندلسية التي

احتلها الصليبيون، وظلت تعبر عن وجود الإسلام في الأندلس، وعن مظاهر الحضارة الإسلامية في تلك البقعة من الأرض.

بدأ ضعف غرناطة بموت السلطان يوسف بن الأحمر، عام (٨٢٧هـ - ١٤٢٤م). وفي سنة (٨٦٨هـ - ١٤٦٢م) استولت قشتالة على جبل طارق ممر الإمداد، أو النجدة من المغرب الأقصى.

في تلك الفترة، وتحديدًا في سنة (٨٧١هـ - ١٤٦٧م)، كان يحكم غرناطة علي أبو الحسن الأحمر الملقب (بالغالب بالله)، لكنه اختلف مع أخيه أبو عبد الله محمد، الملقب بالزغل (أي الشجاع)، على حكم غرناطة. وكعادة ملوك الطوائف في صراعاتهم، استعان الزغل بملك قشتالة ضد أخيه الغالب بالله، فنشبت بينهما حرب انتهت بالصلح، لكن بتقسيم غرناطة إلى جزأين: جزء شمالي، وهو الولاية الرئيسة (غرناطة)، وعلى رأسه الغالب بالله. وجزء جنوبي، وهو مالقة ومعها بعض الولايات، وعلى رأسها أبو عبد الله الزغل.

بعد هذا الانقسام، حدثت تطورات مفصلية كان لها دور كبير في مجرى الصراع؛ فقد تزوج فرديناند الخامس، ملك أرجوان من إيزابيلا وريثة عرش قشتالة، وبذلك دخلت الدولتان في صلح وأنهتا صراعًا طويلاً بينهما. وبعد موت هنري الرابع، ملك قشتالة، ورثت أخته إيزابيلا عرش المملكة، وفي سنة ٨٨٤هـ - ١٤٧٩م صار فرديناند ملكًا على أرجوان وقشتالة، وقد توحدتا في مملكة واحدة، أسبانيا.

كانت هذه اللحظة هي المسمار ما قبل الأخير في نعش غرناطة!

دب الصراع داخل بيت أبي الحسن حاكم غرناطة، وفرت زوجته "عائشة الحرة" بولديها، خوفًا عليهما من أبيهما الذي كان يميل لولديه من ثريا (الجارية النصرانية)... تعاطف الشعب الغرناطي مع عائشة وابنها أبي عبد الله محمد الصغير، فاشتعلت ثورة أطاحت بأبي الحسن وحملت ولده أبا عبد الله إلى حكم غرناطة، ولجأ (الغالب بالله) إلى أخيه الزغل في مالقة.

كان الزغل يقاتل فرديناند، ويتحرك أبو عبد الله الصغير ويقاتل الجيش الأسباني فيقع في الأسر سنة (٨٨٨هـ - ١٤٨٣م). يرفض فرديناند الإفراج عنه مقابل فدية كبيرة، لكنه أفرج عنه في صفقة فيها هدنة بين الطرفين ليستفرد فرديناند بالزغل، وفعلاً استمر القتال فسقطت مالقة سنة ٨٩٥هـ - ١٤٩٠م بعد استسلام الزغل الذي فرّ إلى الجزائر.

وفي العام نفسه يرسل الملكان فرديناند وإيزابيلا إلى الأمير أبي عبد الله الصغير يطالبانه بتسليم غرناطة، وبالأحرى مدينة الحمراء مقر الملك والحكم! ويرفض أبو عبد الله الطلب، بعد استشارة كبراء وقادة قومه الذين رفضوا الاستسلام، وأبدوا استعدادًا للدفاع عن المدينة حتى الموت!

فوجئ الملكان الكاثوليكيان برفض أبي عبد الله فزحف بجيشه للاستيلاء على المدينة بالقوة... هب شعب غرناطة للدفاع عن نفسه وملاذه الأخير في تلك الديار، لم يستطع فرديناند الاستيلاء على غرناطة... ضرب حولها الحصار لمدة سبعة أشهر من كل الجهات... تحولت المواجهة إلى انتفاضة مسلحة وحالة اشتباك متقطع، كانت سرايا المسلمين تخرج للغارات على البلاد النصرانية، وبرز في الجهاد في ذلك

التاريخ اسم موسى بن أبي غسان. ومع استمرار الحصار المطبق واشتداد الخوف والجوع ونقص الأموال والعتاد والسلاح والأنفس والثمرات، قيل إن اتصالات سرية تمت بين أبي عبد الله وفرديناند عرض فيها استسلام الإمارة بالأمان... قَبِل الجمهور المستنزف والمنهك بالحصار العرض... رفض المجاهد موسى بن أبي غسان العرض، وحمل سلاحه وخرج لقتال الجيش الغازي، فقاتل حتى استشهد، لكن الصفقة تمت!

وفي ٤ ربيع الأول ٨٩٧هـ الموافق ٢ كانون الثاني / يناير ١٤٩٢م سقطت غرناطة. وبعد أيام من التسليم دخل الملكان فرديناند وإيزابيلا، في خيلاء، قصر الحمراء ومعهما الرهبان، ورفعت قشتالة صليبها فوق برج القصر الأعلى بالحمراء، إيذانًا بسقوط آخر معقل للإسلام في الأندلس. أما أبو عبد الله الصغير، فقد غادر قصر الحمراء، وسار في اتجاه بلدة أندرش، كما أراد فرديناند في صفقة الاستسلام، حتى وصل إلى ربوة عالية تطل على قصر الحمراء... وقف أبو عبد الله هناك ليلقي نظرة الوداع الأخيرة. لم يتمالك نفسه وهو ينظر إلى وطنه السليب فبكى، وأمه عائشة تنظر إليه وتقول له: "ابكِ كالنساء على ملك لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال"!

ما زال التل الذي وقف عليه أبو عبد الله معلمًا بارزًا في أسبانيا، وتسمى البقعة التي وقف فيها (زفرة العربي الأخيرة)، في إشارة إلى بكاء أبي عبد الله محمد الصغير حين فقد ملكه، بسقوط غرناطة الذي كان نهاية حكم المسلمين في الأندلس كلها.

لا نستطيع أن نطوي صفحة مأساة الأندلس من دون الإشارة إلى ما فعله النصارى بالمسلمين في الأندلس، كي لا يمحو الغرب ذاكرة العالم بخطابه العنصري المعادي للإسلام والمسلمين.

كان اتفاق تسليم غرناطة يتضمن احترام حقوق المسلمين بصيانة دينهم وأرواحهم وممتلكاتهم وحريتهم، والسماح بالهجرة لمن أراد منهم الخروج للبلاد الإسلامية. وعلى وقع سقوط غرناطة، أخرج المسلمون من ديارهم، وكذلك فعلوا باليهود الذين لجأ معظمهم إلى بلدان الشمال الأفريقي.

وفي عام (٩٠٥هـ - ١٤٩٩م) صدر قانون يُجبر المسلمين على اعتناق المسيحية، ويقضي بتحريم شعائرهم الدينية وإغلاق المساجد. وخلال عامين، أي في سنة (٩٠٧هـ - ١٥٠١م)، صدر قرار بحظر وجود الإسلام والمسلمين في أسبانيا. وبدأت "دواوين التحقيق" التي اشتهرت بمحاكم التفتيش عملها في ملاحقة الموريسكيين، وهو الاسم الذي أطلق على المسلمين الذين أجبروا على التنصر آنذاك؛ وكلمة Moriscos تعني "الأندلسيين الصغار" أو "أنصاف الأندلسيين"، وفيها كثير من التحقير لأنها تشير إلى الكاثوليكي الذي كان يظهر المسيحية، ويعيش ويطبق الإسلام سرًّا.

استمرت معاناة هؤلاء المسلمين في مختلف الممالك الأندلسية ما يقرب من قرنين من الزمان، لكن آخر فصولها كانت في عهد الملك الأسباني، فيليب الثالث، حيث أصدر قرارًا في عام (١٠١٧هـ - ١٦٠٩م) بترحيل كل المريسكيين وإجلائهم عن الديار الأندلسية؛ فحشدت لهم السفن

من كل الجهات، وأقلتهم إلى فرنسا وإيطاليا (بشرط أن يبقوا على النصرانية)، وإلى مصر وتركيا، والأغلبية الساحقة إلى المغرب العربي خصوصًا تونس. وتقول المصادر التاريخية إن عدد من تم تهجيرهم قسرًا من رجال ونساء وأطفال، قد بلغ نصف مليون نسمة، وقيل هلك منهم أثناء الطرد ما يقرب من مائة ألف بين قتيل وأسير. كما بلغ عدد من طردوا خلال الفترة (١٤٩٢ - ١٦١٠م) حوالى ثلاثة ملايين نسمة، بحسب بعض المصادر. لقد كانت عملية تطهير ديني وعرقي لأسبانيا (المقدسة) التي لم تحتمل التعايش مع أية ديانة أو ثقافة مختلفة.

إن هذه الجريمة البشعة يجب أن تبقى ماثلة في الأذهان، ونحن نطالع وقائع العصر الحديث والظرف الراهن، وهو يشهد نفي جماعات "زائدة"، أو إبادتها واستئصالها في بعض الدول؛ ليتحقق ما يسمى التجانس الديني أو العرقي أو الثقافي!

لم تكن مأساة غرناطة هي الحدث الوحيد الذي جعل من عام ١٤٩٢ محطة فارقة في تاريخ العالم. ففي العام نفسه، كان اكتشاف ما سمي "بالعالم الجديد"، الذي نسب إلى كريستوفر كولومبوس، الرحالة الإيطالي، والكاثوليكي المتعصب، الذي كان يسعى لإيجاد طرق للتجارة الأوروبية غير تلك التي كانت تمر ببلاد "المحمديين" كما يسميهم، أي المسلمين. لقد سافر عبر المحيط الأطلسي في ثلاث سفن مع ١٨٩ بحارًا، وذلك باتفاق مع ملوك الأسبان الكاثوليك، بعد رفض إيطاليا وإنجلترا والبرتغال الفكرة. وقد وصل إلى جزر الكاريبي في ١٢ تشرين الأول / أكتوبر ١٤٩٢م. كان

كولومبوس يعتقد أنه وصل إلى الهند الغربية، ولم يصل إلى أمريكا الشمالية في رحلته الأولى، إذ قيل إنه وصلها عام ١٤٨٩م. بالرغم من ذلك، فإن مكتشف أمريكا، في المصادر الغربية وكتب التاريخ الأمريكي، هو "أميريغو فيسبوشي" Amerigo Vespucci، والذي سميت القارة باسمه. وتقول بعض المصادر إن المسلمين هم أول من اكتشف الأمريكيتين، وقد سبقوا كولومبوس بقرنين من الزمان أو أكثر.

وقد تزامن هذا أيضًا مع ما عرف بالكشوفات الجغرافية البرتغالية، التي بدأها "بارتولميو داييز" حين قام في ٥ حزيران / يونيو ١٤٨٧م، برحلة حول شواطئ أفريقيا جنوبًا، واكتشف ما سماه البرتغاليون برأس الرجاء الصالح.

وقد تبعه "فاسكو دي جاما" الذي وصل إلى سواحل الهند في ٢٠ أيار / مايو ١٤٩٨م، ثم تبعه "فرناندو ماجلان" الذي عبر المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي (١٥١٩ - ١٥٢٢م)، فكان أول من طاف حول الكرة الأرضية، وإن كان لم يكمل الرحلة.

وسواء كان اكتشاف "العالم الجديد" على يد كولومبوس أو أميريغو، أو سبقهما المسلمون في ذلك، فإن هذه التطورات قد سهلت حركة الملاحة والتجارة العالمية، وقللت من الاعتماد على الطرق البرية عبر الديار الإسلامية، وفتحت باب الاستيطان، بل والغزو الأوروبي إلى "العالم الجديد"، خصوصًا أمريكا الشمالية التي ستشهد لاحقًا أكبر عملية إبادة في التاريخ البشري لسكانها الأصليين من الهنود الحمر، ولتقوم على جماجم

١١٢ مليونًا، منهم "الولايات المتحدة الأميركية" التي يبدأ تاريخها من الربع الأخير في القرن الثامن عشر، لتدخل إلى الحلبة الدولية، وتصبح خلال مائتي عام أقوى وأعظم دولة في العالم ورأس حربة الحضارة الغربية.

لا يمكن القفز عن جرح سقوط الأندلس من دون السؤال عن موقف قوتين إسلاميتين رئيستين آنذاك: الدولة العثمانية، ومصر المماليك.

تتحدث المصادرة التاريخية أن مسلمي غرناطة أرسلوا وفدين إلى "إسطنبول" و"القاهرة"، يستغيثون بالسلطان العثماني وسلطان المماليك.

بعيدًا عن مواطن الاتهام أو التبرير، لم تكن الدولة العثمانية في وضع يسمح لها بنجدة أهل الأندلس. لا الجغرافيا حيث بعد المسافة وانعدام الطريق البري، ولا الظروف الموضوعية القاسية التي عاشتها الدولة العثمانية، تسمحان لها بالتدخل لإنقاذ الأندلس.

واجه العثمانيون ثلاثة تحديات رئيسة: التحدي الصفوي الذي امتد إلى داخل الدولة بإثارة قلاقل مذهبية في الأناضول، والنزاعات والصراعات مع الدول الأوروبية، وحالة الحرب القائمة بينهم وبين المماليك. بالرغم من ذلك، حاول السلطان بايزيد الثاني، ابن محمد الفاتح، التدخل لنجدة المسلمين في الأندلس، فأرسل قوة بحرية تحت قيادة "كمال رئيس" في سنة ٨٩٢هـ - ١٤٨٧م، أي قبل سقوط غرناطة. وكان ذلك بمثابة إعلان حرب على عدة دول مسيحية أوروبية، وهو أمر لم تفعله الدولة الإسلامية المجاورة أو القريبة في شمال أفريقيا كالدولة الوطاسية في المغرب، أو الدولة الحفصية في تونس، الذين تعاونوا مع الأسبان ومع فرنسا ضد

إخوانهم المسلمين في الأندلس.

هاجمت القوة البحرية عدة جزر وسواحل بعض المدن الإيطالية والإسبانية، وهدمت بعض القلاع والحصون، لكنها لم تستطع البقاء طويلاً، وقيل إنها لحظة سقوط غرناطة قامت بمساعدة وإجلاء أكثر من ٣٠٠ ألف مسلم من الفارين من غرناطة، ولجأوا إلى المغرب والجزائر.

لم يحصل وفد الأندلسيين إلى المماليك في القاهرة على أية نتيجة، لأن بُعد الجغرافيا والحرب مع الدولة العثمانية شكلت أيضًا موانع حالت دون نجدة المماليك لغرناطة. وقيل إن كل ما فعلوه أن لجأوا إلى الدبلوماسية، فأرسل السلطان المملوكي الأشرف سيف الدين قايتباي (١٤٨٦ - ١٤٩٦م) وفودًا إلى البابا وإلى الأسبان، لتقول لهم إن عليهم أن يقلقوا ويخافوا على مصير المسيحيين الموجودين في مصر والشام، وأنهم قد يجبروا على اعتناق الإسلام أو يواجهون الموت، لكن الأسبان والبابا لم يهتموا بهذا التحذير، واعتبروه من باب التخويف، لأنهم يعلمون أن الإسلام لا يكره أحدًا على ترك دينه.

وهكذا يعيد التاريخ سبب الانهيار إلى أهل الأندلس أنفسهم، وإلى تفككهم وانقسامهم إلى طوائف وملوك، وإلى صراعاتهم وتحالفاتهم مع الصليبيين ضد بعضهم البعض، فبادت دولتهم في واحدة من أكبر المآسي في تاريخ الإسلام والإنسانية.

ربما كانت المفارقة الكبيرة أن يؤرخ لبداية الانحدار في المسيرة الإسلامية بسقوط غرناطة الذي وقع في ذروة مرحلة النهوض والفتح

العثماني، وعلى أعتاب مرحلة الذروة في القوة العثمانية والانتقال إلى طور الخلافة. كان ذلك في عهد سليم الأول الذي بدأ في سنة (٩١٨هـ – ١٥١٢م)، والذي قرر أن يوحد الأمة ويصنع مركزية إسلامية عثمانية للوقوف في وجه الأطماع الصليبية.

خاض السلطان سليم حربًا ضد الدولة الصفوية التي رأى فيها العثمانيون داعمًا لثورات العلويين داخل الدولة العثمانية، وأنها تسعى لمد نفوذها خارج إيران بعد أن فرضت المذهب الشيعي فيها، واحتلت بغداد في سنة (٩١٤هـ – ١٥٠٨م). انتصر العثمانيون على الصفويين في معركة غالديران الشهيرة سنة (٩٢٠هـ – ١٥١٤م)، واحتلوا مدينة تبريز عاصمة الدولة الصفوية، وأوقفوا التوسع الصفي لمدة قرن من الزمان.

قبل اشتعال الحرب العثمانية الصفوية، حاول الطرفان استمالة المماليك، فجرت اتصالات بينهم وبين الشاه إسماعيل الذي سعى لتخويفهم من نفوذ العثمانيين وخطرهم عليهم، بينما لعب السلطان سليم على الوتر المذهبي بإثارة المماليك "السنة" ضد الصفويين بأنهم يسعون لنشر المذهب الشيعي وفرضه بالقوة على أهل السنة. لم يستجب المماليك للطرفين، ووقفوا على الحياد، وإن كان التاريخ قد غمز من جانبهم بأنهم كانوا أميل للصفويين، لأنهم لا يشكلون بديلاً سنيًّا لهم في المنطقة.

بعد انتصار سليم الأول على الصفويين زحف لقتال المماليك، فانتصر عليهم في معركة "مرج دابق" قرب حلب في سنة (٩٢٢هـ – ١٥١٦م)، وقد قتل فيها السلطان المملوكي قانصوه الغوري. واصل

السلطان سليم زحفه نحو مصر، فانتصر على المماليك في معركة "الريدانية" في القاهرة، وقتل حاكمهم طومان باي، شنقًا على باب زويلة بالقلعة؛ فقضى بذلك على دولتهم، ثم تنازل آخر خليفة عباسي بالقاهرة "المتوكل على الله الثالث" عن الخلافة الإسلامية (الصورية) لسليم الأول في سنة (٩٢٣هـ - ١٥١٧م)، وحمل الخليفة العباسي إلى إستانبول، وأصبح سليم أول سلطان عثماني يحمل لقب خليفة، وصارت مصر ولاية عثمانية، وقدم شريف مكة إلى القاهرة، وأعلن خضوع الحجاز للخليفة العثماني.

بعد وفاة سليم الأول تولى الخلافة ولده سليمان الذي عرف في الغرب بسليمان العظيم، وفي المشرق بسليمان القانوني، نظرًا لجهوده في إصلاح النظام القضائي العثماني. كان سليمان صاحب أطول فترة حكم استمرت ٤٦ سنة (٩٢٦ - ٩٧٤هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦م)، وفي عهده بلغت الدولة ذروة قوتها واتساعها، حيث انتقلت من دولة إقليمية إلى "خلافة إسلامية"، واتسعت لتشمل الجزيرة العربية والحجاز واليمن والمغرب العربي، وصارت حدودها من المجر إلى أسوان جنوب مصر، ومن نهر الفرات وقلب إيران إلى باب المندب جنوب الجزيرة العربية. وسيطرت الأساطيل العثمانية على مضائق وبحار المنطقة من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر حتى الخليج.

وعلى الجبهة الأوروبية اقتحمت الجيوش العثمانية أوروبا، واكتسحت إقليم البلقان كله تقريبًا حتى بولندا، ووصلت إلى فينا عاصمة النمسا،

وحاصروها سنة (١٥١٩م). كانت معركة سليمان القانوني في أوروبا في أحد وجوهها موجهة ضد أسبانيا التي تحولت بعد سقوط الأندلس إلى قوة صاعدة متغولة في أوروبا، وتشكل تهديدًا كبيرًا للدولة العثمانية. لقد أخضع شارل الخامس ملك أسبانيا كل ملوك أوروبا لنفوذه بالحرب، أو بالموادعة والمصاهرة، ما عدا إنجلترا وفرنسا. وحين دخلت الأخيرة في صراع معه أسر الملك (لويس سافوا)، فأرسلت أمه تستنجد بسليمان القانوني وترجوه تخليص ابنها، وكأن الدولة العثمانية هي شرطي العالم الأقوى في ذلك الوقت. وقد استطاع سليمان تخليصه، وفرض على أسبانيا شروطًا قاسية في معاهدة مدريد سنة (٩٣٢هـ - ١٥٢٦م)، وبعد الإفراج عنه عمل الملك الفرنسي على تقوية روابطه مع السلطان العثماني.

كان تقليص نفوذ الملك الأسباني في أوروبا، وبالذات في المجر، هدفًا مهمًّا لسليمان القانوني. لذلك زحف على رأس جيش كبير وفتحها في معركة "موهاتش"، في ٢٩ آب / أغسطس ١٥٢٦م. كانت هزيمة مملكة المجر منكرة، وظلت نقطة سوداء في ذاكرة الهنغاريين حتى ذهبت مثلاً لديهم، فقالوا: "أسوأ من هزيمتنا في موهاكس".

بعد عهد سليمان القانوني دخلت الدولة العثمانية مرحلة طويلة من الضعف والتدهور، من سنة (٩٧٤هـ - ٥٦٦م) حتى سنة (١١٧١هـ - ١٧٥٧م)، تناوب فيها على حكم الدولة خمسة عشر سلطانًا، أولهم سليم الثاني وآخرهم عثمان الثالث. حاصرت عوامل الضعف والتهديدات الدولة داخليًّا وخارجيًّا، ومن كل حدب وصوب. اتسم الوضع الداخلي بسيطرة

الإنكشارية على مقاليد الأمور، وفسدت أخلاقهم، وقويت شوكتهم، وامتدت أيديهم إلى تولية الخلفاء وعزلهم، وحتى قتلهم، فأصبحوا معول هدم للدولة، بعد أن كانوا من دعائم قوتها.

وضعف السلاطين، وظهر الانغماس في الترف والدعة، وخبت شعلة الجهاد في النفوس، وانتشرت الحركات والثورات الداخلية، من بعض ولاة الأقاليم الذين شعروا بضعف قبضة دولة الخلافة لاتساع رقعتها؛ فثاروا بغية الاستقلال والانفصال، مثل ثورة أباظة باشا في الأناضول، وثورة فخر الدين المعني من الدروز الذي سيطر على لبنان ومعظم فلسطين وسوريا، لكن الدولة قضت عليه سنة (١٠٤٤هـ - ١٦٣٤م).

أما على صعيد التهديدات الخارجية، فقد وجدت الدولة العثمانية نفسها بين فكي كماشة: حروبها الطاحنة مع الدولة الصفوية، والحرب مع القوى الأوروبية التي أخذت قرارًا بوقف الزحف الإسلامي تجاه أوروبا؛ وضرب القوة الإسلامية "العثمانية" على أرضها، وصولاً إلى تفكيك الإمبراطورية العثمانية.

كانت حروب الدولة العثمانية مع الصفويين نموذجًا لاستنزاف القوة الإسلامية، لصالح الأعداء الذين يتربصون بالإسلام وأهله. خاض الطرفان سلسلة من الحروب تبادلا فيها الانتصارات والهزائم، ووقعا فيها العديد من معاهدات الصلح، والتي تعكس نتائج الحروب.

إذا كان العثمانيون قد افتتحوا حروبهم مع الصفويين بالانتصار في معركة جالديران (١٥١٤م) في عهد سليم الأول، فقد حافظوا على هذه

الوتيرة خلال القرن السادس عشر، فحققوا انتصارات في الحرب العثمانية – الصفوية زمن سليمان القانوني (١٥٣٢ – ١٥٥٥م)، وانتهت بتوقيع معاهدة "أماسيا"، وأيضًا في الحرب التي استمرت اثني عشر عامًا (١٥٧٨ – ١٥٩٠م)، في عهد مراد الثالث والشاه عباس الأول، وانتهت بتوقيع معاهدة إسطنبول.

غير أن استمرار مظاهر الضعف الداخلية وتولي السلطان أحمد الأول الحكم، وهو في سن الرابعة عشرة في سنة (١٠١٢هـ – ١٦٠٣م)، إضافة إلى انشغال الدولة بالحروب مع القوى الأوروبية، وثورات جلالي العلوي في الأناضول، جعل الشاه عباس الأول يطمع في قتال العثمانيين، فخاض حربًا ضدهم استمرت في طورها الأول تسع سنوات (١٦٠٣ – ١٦١٢م)، أخذت فيها الدولة الصفوية مدينة تبريز، ودخلت بغداد واستولت على مساحة واسعة من الأرض بلغت ٤٠٠ ألف كيلو متر، وانتهت الحرب بتوقيع "معاهدة نصوح باشا". وكانت هذه أول معاهدة وافقت فيها الدولة العثمانية بالتنازل عن أراضٍ. وكان من ضمن مقررات المعاهدة أن يدفع الصفويون للعثمانيين سنويًّا حمولة ٢٠٠ جمل حرير (حوالى ٥٩ ألف كيلو غرام)، لكن الشاه عباس رفض أن يلتزم بالدفع، فاندلعت الحرب مجددًا عام ١٦١٥م، واستمرت ثلاث سنوات، وانتهت بتوقيع "معاهدة سراف".

غير أن المعاهدة الأشهر في تاريخ الصراع العثماني – الصفوي كانت "معاهدة قصر شيرين" التي وقعت عام ١٦٣٩م، لتنهي حربًا بين الدولتين، استمرت ستة عشر عامًا (١٦٢٣ – ١٦٣٩م)، انتصر فيها

العثمانيون في عهد السلطان مراد الرابع. لم تكن هذه آخر الحروب بين العثمانيين والصفويين، حيث ظل الجرح مفتوحًا في جولات مختلفة ستمتد إلى زمن نادر شاه (الإفشاري) من بعد الصفويين، وصولاً إلى القاجاريين.

ودائمًا ستتزامن هذه الحروب (الصفوية - العثمانية) مع حروب الهجمة الغربية المتواصلة ضد الدولة العثمانية، ومع اشتداد الصراعات والقلاقل الداخلية.

على صعيد المواجهة مع القوى الغربية، ستخوض الدولة العثمانية، ومنذ الثلث الأخير من القرن السادس عشر، حروبًا دفاعية في الغالب، وعلى أكثر من جبهة. لم تكد الدولة العثمانية تفرغ من حرب روسيا القيصرية في سنوات (١٥٦٨ - ١٥٧٠م) التي انتهت بانتصار روسيا، حتى كان "التحالف المقدس" بين إيطاليا (البندقية) وأسبانيا والنمسا، تحت رعاية البابا، يحرز انتصارًا على الأسطول العثماني وتقليص نفوذه في البحر المتوسط.

وخلال القرن السابع عشر الميلادي، وفي ظل تعاظم دور من شغلوا موقع الصدر الأعظم حين تخلف السلاطين عن قيادة الجيوش، وبمحاولة الاستفادة من التناقضات والصراعات بين ملوك وسلالات أوروبا الحاكمة، حاولت الدولة العثمانية أن تنهض من جديد وتستعيد زمام المبادرة بالهجوم في أوروبا، غير أن الهزيمة التي مني بها الجيش العثماني في فينا في ١٢ سبتمبر ١٦٨٣ وضعت حدًّا لهذا الطموح المتجدد.

دفع الصدر الأعظم قرة مصطفى حياته ثمنًا لهذه الهزيمة، حين

أعدم في ديسمبر ١٦٨٣م، لكن الثمن الذي دفعته الدولة العثمانية في نهاية فترة حروبها مع النمسا (١٦٨٢ - ١٦٩٩م) كان أكبر.

بعد هزيمة العثمانيين في معركة زنتا، سنة ١٦٩٧م، أجبرت على توقيع "معاهدة كارلوفيتش" (مدينة في صربيا) مع قوى الحلف الثلاثي المقدس الذي تشكل بين النمسا وبولندا والبندقية سنة ١٦٨٤م في العام التالي لهزيمة العثمانيين في فينا، وانضمت إليه روسيا سنة ١٦٨٤م. وبموجب المعاهدة التي وقعت في ٢٦ كانون الثاني / يناير ١٦٩٩م أجبرت الدولة العثمانية على التنازل عن ترانسلفانيا وغالبية هنغاريا (المجر) للنمسا، وإعادة أجزاء من أوكرانيا وبودوليا إلى بولندا ومعظم دلماتيا مع المورة للبندقية، ومدينة أزاق لروسيا.

لقد كانت هذه المعاهدة أول معاهدة توقعها الدولة العثمانية مع القوى الأوروبية من موقع الهزيمة، وقد كان ذلك بداية التراجع العثماني في أوروبا، بينما أصبح آل هابسبورج في النمسا القوة المهيمنة في أوروبا. وقد توالت الهزائم والمعاهدات التي تعبر عنها مثل "معاهدة بساروفيتز" سنة ١٧١٨م بين النمسا والدولة العثمانية التي تنازلت فيها عن المزيد في المقاطعات في أوروبا الشرقية، فمثلت المعاهدة قمة التوسع النمساوي بالشرق.

غير أن الدولة العثمانية تمكنت من استرداد البلقان في "معاهدة بلغراد" عام (١٧٩٣م) التي أنهت الحرب بينها وبين النمسا، بعد أن انضمت الأخيرة إلى روسيا في حربها ضد الدولة العثمانية.

كانت سلسلة الحروب بين روسيا والدولة العثمانية أحد العوامل التي أنهكت العثمانيين الذين حققوا بعض الانتصارات في بعض الحروب، مثل حرب (١٦٧٦ - ١٦٨١م)، وحرب (١٧١٠ - ١٧١١م)، إلا أن الانتصارات الروسية بدءًا من حرب (١٦٨٦ - ١٧٠٠م) كانت هي السمة الغالبة، والتي امتدت حتى أواخر الثلث الأول من القرن التاسع عشر. وقد بدا واضحًا من خلال تلك الحروب والمعاهدات التي تمخضت عنها، مثل "معاهدة كوتشيك كينارجيه" (١٧٧٤م)، و"معاهدة ياسي" (١٧٩٢م)، أن روسيا كانت عدوًّا رئيسًا في قلب القوى الغربية للدولة العثمانية، وعملت طويلاً على تقويض كيانها.

خلال هذا التاريخ المرير من الصدام مع القوى الخارجية (الصفويين، الأوروبيين، الروس)، وفي ظل تفاقم عوامل الضعف الداخلي، كان واضحًا أن الدولة العثمانية، قد انتقلت منذ منتصف القرن الثامن عشر من مرحلة الضعف إلى مرحلة الانحطاط والتراجع. وهي مرحلة تناوب فيها على حكم الدولة تسعة سلاطين، أولهم مصطفى الثالث الذي استلم الحكم سنة (١١٧١هـ - ١٧٥٧م)، وآخرهم عبد الحميد الثاني الذي تولى الخلافة بعد خلع أخيه مراد الخامس سنة (١٢٩٣هـ - ١٨٧٦م).

كانت هذه المرحلة امتدادًا لمرحلة الضعف، حيث تفاقمت فيها عوامل الانحطاط والتفسخ الداخلية والخارجية. فمع اشتداد الهجوم الأوروبي ضد الدولة ظهرت الفتن الطائفية والعرقية في أنحاء مختلفة من الدولة، وظهرت حركات وأسر، لا سيما في الفضاء العربي للدولة، تهدد وحدتها

وتدعو إلى الانفصال.

ففي خلال الفترة (١١٨٣ - ١١٨٧هـ / ١٧٦٩ - ١٧٧٣م) قامت ثورة علي بك الكبير والي مصر الذي استقل بها، وسيطر على الشام والحجاز، لكن الدولة استطاعت القضاء عليه.

بيد أن ظهور أسرة محمد علي (الضابط الألباني) الذي أصبح واليًا على مصر سنة ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م، سيشكل تحديًا كبيرًا للدولة العثمانية، بالرغم من استفادتها منه في قتال الدعوة السلفية (الوهابية) والدولة السعودية في الجزيرة العربية، وضد التمرد اليوناني على الحكم العثماني في المورة.

لقد تحول محمد علي الذي افتتح أولى سنوات حكمه بالتخلص من المماليك في مذبحة القلعة الشهيرة سنة ١٢٢٦هـ - ١٨١١م، إلى قتال الدولة العثمانية، حيث حارب جيوشها في الشام والأناضول، وكاد يسقط الدولة لولا تعارض ذلك مع مصالح الدول الغربية التي كانت ترغب آنذاك ببقاء الدولة العثمانية ضعيفة، فأوقفت محمد علي وأرغمته على التنازل عن معظم الأراضي التي استولى عليها.

حاول محمد علي خلال فترة حكمه التي استمرت خلال السنوات (١٨٠٥ - ١٨٤٨م)، أن يؤسس لمشروع نهضة عسكرية وصناعية وتعليمية في مصر، إلا أن القوى الغربية لم تسمح له بذلك، بعد أن ضمنت له استمرار الحكم الوراثي لمصر في سلالته إلى أن انتهى بإلغاء الملكية وقيام الجمهورية في مصر سنة ١٩٥٣م.

كانت حالة الدولة العثمانية يرثى لها، فصار يطلق عليها "الرجل

المريض" في أوروبا. وكانت أعراض المرض مستفحلة بالصراعات الداخلية والانهيارات المعنوية والأخلاقية، وبنشوء أزمة مالية وتضخم اقتصادي وضع الدولة على حافة الإفلاس، وأجبرها على القبول بنظام الامتيازات الأجنبية التي لم تكن أكثر من غطاء قانوني لتسلل المشروع الاستعماري الغربي الذي لم يتخلَّ عن زحفه العسكري ولا مشروعه الإستراتيجي بالقضاء على الدولة الإسلامية في نهاية المطاف، وفي عقر دارها.

وقد واكب ذلك صعود الغرب ونمو قدراته الهائلة في المجالات العلمية والاقتصادية والعسكرية، والتطورات السياسية على صعيد توازنات القوة والتحولات الاجتماعية؛ إذ كان الحدث الأبرز نجاح الثورة الفرنسية، وإلغاء الملكية، وإعلان الجمهورية عام ١٧٩٢م.

فتح هذا التطور الباب أمام الهجوم الغربي الحديث، حيث قام نابليون الذي قاد معظم جيوش الثورة الفرنسية وحروبها في أوروبا بغزو مصر، ونزلت طلائع قواته على شواطئ الإسكندرية مساء يوم ٣ يوليو ١٧٩٨م.

كانت الحملة الفرنسية أول حملة ترسلها أوروبا الناهضة إلى الشرق العربي الإسلامي في العصر الحديث. وقد حلم نابليون بجعل مصر وفلسطين قاعدة لإمبراطورية استعمارية، تمتد إلى شمال أفريقيا غربًا، وإلى بلاد الشام والعراق شرقًا وشمالاً؛ ومن هذه القاعدة الاستعمارية يمكنه توجيه ضربة إلى الإمبراطورية البريطانية بقطع طريقها إلى مستعمراتها في الهند. ولم تقف أطماع نابليون وطموحه عند الأبعاد العسكرية للحملة، حيث أحضر معه عددًا كبيرًا من العلماء وذوي الاختصاص في مختلف العلوم

والمعارف والفنون لدراسة مصر من كل النواحي، وقد أنجز هذا الفريق الموسوعة الأهم في وصف تاريخ مصر وجغرافيتها وطبوغرافيتها، وعرفت باسم "وصف مصر".

واجهت الحملة مقاومة شعبية من الأهالي والمماليك، ومن العثمانيين والبريطانيين الذين رأوا في الحملة تهديدًا لنفوذهم وأطماعهم في الشرق. لكن نابليون الذي تظاهر بإعلان إسلامه، لاستمالة المصريين والمسلمين ودفعهم إلى التسليم والقبول بالاحتلال، ارتكب وجيشه الكثير من المذابح والفظائع بحق الأهالي.

لقد كشفت الرسائل التي كان يوجهها لحكامها العسكريين في إقليم مصر أن يحثهم على قتل عدد من الأهالي يوميًّا، وقطع رؤوسهم والطواف بها في الشوارع لإرعاب الناس وإرهابهم، كي يتخلوا عن المقاومة. وقد بلغت ذروة جرائم نابليون في مصر، حين دكت المدفعية الفرنسية الأزهر، ودخل جيش نابليون الأزهر بخيولهم، وعاثوا فسادًا وقتلاً في الناس، حين قال نابليون في رسالة للحاكم العسكري بمحافظة الشرقية إنهم قتلوا ألفين من المصريين في القاهرة.

وبالرغم من هزيمة نابليون في معركة أبي قير البحرية، إلا أنه زحف إلى فلسطين عبر العريش، فاحتل غزة، وواصل تقدمه حتى وصل إلى عكا.

ربما لم يقرأ نابليون تاريخ الشرق قبل قدومه إليه، ولم يخبره أحد "حكاية عكا" التي حفرت اسمها في تاريخ الساحل والمشرق العربي بالمثل

الفلسطيني: "لو عكا خايفة من هدير البحر ما وقفتش عالشط"!. عكا التي كانت قلعة الاندحار الصليبي عن فلسطين عام ١٢٩١م، هي ذاتها عكا التي صدّت نابليون، وكسرت أحلامه تحت أسوارها، وأجبرته على أن يعود أدراجه إلى مصر التي غادرها إلى حيث جاء من فرنسا بتاريخ ١٨ آب / أغسطس ١٧٩٩م، بعد أن عهد إلى الجنرال كليبر بقيادة الحملة من بعده.

لم يعمّر كليبر في قيادة الحملة، حيث قام الشاب السوري ابن مدينة حلب، سليمان محمد أمين الحلبي الذي كان يدرس في الأزهر بقتل كليبر طعناً في ١٤ حزيران / يونيو ١٨٠٠م، وأعدم سليمان على إثر ذلك، بعد أن نكّل به الفرنسيون وعذبوه تعذيبًا شديدًا.

الخلاصة في هذه الحقبة أننا شهدنا تدهور الدولة العثمانية وتفككها، كثمرة للهجوم الاستعماري الغربي الحديث، بل إن هزيمة الدولة العثمانية، ضمن دول المحور في الحرب العالمية الأولى، تبعها توقيع تركيا لمعاهدة لوزان عام ١٩٢٣ لإعلان استقلال تركيا وتوزيع إرث الإمبراطورية العثمانية.

وتمخض توزيع هذه التركة إلى أمرين خطيرين جدًّا في المنطقة:

أولاً: إقامة الدولة اليهودية، أو الكيان الصهيوني "إسرائيل"، على أرض فلسطين، كرأس حربة للمشروع الاستعماري وثمرة للهجمة الغربية الحديثة.

ثانيًا: تجزئة الشرق العربي والإسلامي وتقسيمه، كما نصت اتفاقية سايكس بيكو، وتأسيس ما سمي "بدولة الاستقلال" الحديثة على أنقاض الدولة العثمانية.

وإذا كانت بعض الأدبيات القومية والإسلامية قد اعتبرت التجزئة وقيام "إسرائيل" وجهان لعملة واحدة، فإن ما لم ينتبه إليه كثيرون هو الحقبة الزمنية الواحدة التي جمعت الاثنين: التجزئة، و"إسرائيل".

فعندما نراجع تاريخ استقلال بعض الدول: سوريا الاستقلال في ١٩٤١، والجلاء في لبنان والأردن في التواريخ نفسها في سنة ١٩٤٦، ثم إعلان قيام "إسرائيل" سنة ١٩٤٨... وكأن القوى الاستعمارية التي رسمت هذه الخريطة الجديدة للمنطقة أرادت أن تقول لدول الاستقلال العربية، إن عمرها من عمر "إسرائيل" في المنطقة! ولا ينجو من ذلك دول كبيرة، عمر الدولة فيها آلاف السنين، مثل العراق التي استقلت عن الاستعمار البريطاني عام ١٩٣٢، ومصر التي اعتبر استقلالها الحقيقي مع ثورة يوليو ١٩٥٢، برغم الاستقلال الاسمي سنة ١٩٢٢. وحين يسأل دارس التاريخ كيف حدث هذا؟ كيف ضاعت فلسطين؟ وكيف نجح الغرب والمشروع الصهيوني في إقامة القلعة الصليبية الجديدة "إسرائيل"؟ سيجد الكثير مما يقال حول هذا الموضوع، لكن هذا مجاله تاريخ فلسطين والصراع من أجلها. لكن هناك عاملان لا يمكن القفز عليهما هنا كمقدمات لضياع فلسطين، في سياق الهجمة الغربية الحديثة.

١- سقوط الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال أتاتورك، والذي كان في ٣ مارس ١٩٢٤م، الموافق ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ. وهنا نتذكر أن تحرير القدس على يد صلاح الدين كان أيضًا في ٢٧ رجب (ذكرى الإسراء والمعراج)!! وهنا نتذكر موقف السلطان عبد الحميد الثاني عندما

قابله هرتزل، وعرض عليه سداد ديون تركيا بتقديم هدية لها بخمسة ملايين ليرة ذهبية مقابل الموافقة على منحهم فلسطين ليقيموا فيها دولة لليهود. ماذا كان رد السلطان عبد الحميد؟ قال لهم: "إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبًا فلن أقبل، فلسطين ليست ملكي، إنما هي ملك الأمة الإسلامية".

من يقف في وجه مشروع إقامة "الدولة اليهودية" بهذه القوة، كان لا بد أن يسقط، وهكذا كان مصير السلطان عبد الحميد، عندما تم إلغاء السلطنة عام ١٩٢٢... ثم كان إعلان الجمهورية التركية في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣، وعين أتاتورك رئيسًا لها، وفي ١٩٢٤ أعلن إلغاء الخلافة زمن السلطان عبد الحميد الثاني.

وإذا وصف سقوط غرناطة بأنه "زوال الملّة" لا زوال الدولة، فإن ما فعله أتاتورك في تركيا كان منزلة بين المنزلتين، أي أنه كان "زوال دولة" الخلافة الإسلامية، و"زوال الهوية" من خلال الإجراءات التي اتخذها أتاتورك وسلخ تركيا عن إسلامها ودينها الذي حملت رايته لقرون، فمنع الحجاب، ومنع الأذان باللغة العربية، وألغى الأحرف العربية، وقيد عدد المساجد، وحوّل مسجد آيا صوفيا إلى متحف.

٢- الاستعمار الثقافي والمعنوي الذي بدأ يخترق الجسد الإسلامي منذ الحملة الفرنسية... إن النخب الليبرالية السياسية والثقافية العربية، ومن أسموا أنفسهم رواد النهضة العربية، هم المسؤولون بالدرجة الأولى عن ضياع فلسطين... كان التحدي الذي فرضه النهوض الأوروبي على الأمة يستدعي استجابة عربية إسلامية في مجال العلم والصناعة، إلا أن النخب

العربية نقلوا الاستجابة إلى مجال العقيدة والفكر والأخلاق والفن والأدب، وظنوا أن اللحاق بركب المدنية الحديثة أن نسلك طريق أوروبا في النهضة حذو النعل بالنعل، وكأن التاريخ الأوروبي تاريخنا وتاريخ البشرية جمعاء، وينبغي تقمص تجربتهم بالكامل.

لقد وقفت هذه النخب ضد تراث الأمة وعقيدتها وانتمائها التاريخي، ونادوا بانسلاخ الأمة عن دينها وإسلامها العظيم. رأينا انسلاخ السياسيين حين يعلن الشريف حسين الثورة على دولة الخلافة، ويقاتل تحت راية البريطانيين والحلفاء لإسقاط الكيان السياسي للأمة ورمز وحدتها. ورأينا انسلاخ المثقف في طه حسين وسلامة موسى حين يحضرا حفل افتتاح الجامعة العبرية في القدس عام ١٩٢٥م التي كانت بمثابة القاعدة العلمية للمشروع الصهيوني، وحجر الأساس المعرفي لتأسيس "الدولة اليهودية" "إسرائيل".

لم تكن إقامة دولة الكيان الصهيوني خاتمة الأحزان ونهاية الانحدار... فقد دخل العالم العربي مرحلة جديدة في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، بوصول العسكر إلى الحكم... رفع العسكر شعار القومية العربية كطريق لتحقيق الوحدة، لكنهم تبنوا الاشتراكية كأيديولوجية وعقيدة فكرية، وبشروا الجماهير المسحوقة بالحرية والعدالة وتحرير فلسطين. فماذا كانت النتيجة؟ مزيد من القمع والفقر والبؤس، والأخطر من هذا كله إضاعة ما تبقى من أرض فلسطين وأكثر من ثلاثة أضعافها من الأرض العربية. كان هذا في هزيمة حزيران / يونيو ١٩٦٧ المدوية... في السابع من

حزيران في تلك الحرب سقطت القدس، ليصل منحنى الانحدار الإسلامي والعربي إلى نقطة الصفر، ويبلغ المشروع الصهيوني رأس حربة الغرب إلى ذروة وقمة توسعه وقوته.

إنها اللحظة الأكثر مأساوية في تاريخ الإسلام منذ تحرير بيت المقدس من الصليبيين... لحظة أخطر من سقوط غرناطة على يد الصليبيين، وسقوط بغداد على يد التتار، لأن تلك الضربات - كما قال توفيق الطيب- كانت في الأجنحة، أما سقوط القدس فهي طعنة في القلب من الوطن الإسلامي.

وإذا كانت الليبرالية العربية بنخبها السياسية والثقافية تتحمل مسؤولية النكبة الأولى وضياع ٧٨% من أرض فلسطين، فإن أنظمة العسكر تتحمل مسؤولية سقوط القدس وهزيمة ١٩٦٧. إذا كان الليبراليون العرب قد أعلنوا الحرب على تراث الأمة وعقيدتها، فإن العسكر خاضوا حربًا ضد الإسلاميين الذين نادوا بإعادة دور الإسلام في قيادة الحياة بدلاً من العقائد والأفكار المستوردة.

سحق الإنسان العربي الذي يطالب بالسير على نهج إنسانية محمد ابن عبد الله ﷺ، وعدالة الفاروق عمر، وبطولة صلاح الدين الأيوبي لتحرير الأوطان، وعلق الإسلاميون على حبال المشانق. ماذا كانت النتيجة؟ كانت مأساوية بكل معنى الكلمة، لأن المقابلة في ميدان الصراع التاريخي بين الأمة وأعدائها تمت هذه المرة بين مشروع صهيوني قام على أسس عقائدية توراتية، وهو نتاج الحضارة الغربية بمرجعيتها الفكرية

(اليهودية – المسيحية)، ومشروع عربي يستعير الليبرالية والاشتراكية من فتات الحضارة الغربية، أي أنه إفراز مشوّه للغرب وليس نقيضًا له... بل هو سلعته وصورته الممسوخة، وعدت بالتنمية والتقدم فلم تؤمن رغيف الخبز، ووعدت بتحرير فلسطين فأضاعت مجددًا أكثر من ثلاثة أضعافها!!

لم تنتج هزيمة حزيران ١٩٦٧ نور الدين زنكي جديد، ولا صلاح الدين جديد في الأمة... بل أفرزت ميلاً لطي صفحة فلسطين ١٩٤٨، حين رفع العرب شعار "إزالة آثار العدوان"، أي عدوان ١٩٦٧... ومنه وصل العرب ممثلون بأكبر دولة عربية، بل "أم العرب" في العصر الحديث التي يقول أهلها إنها "أم الدنيا" مصر، إلى كامب ديفيد عام ١٩٧٨ ومعاهدة الصلح مع "إسرائيل" عام ١٩٧٩.

قد يظن البعض أن هناك محطة مهمة في تاريخ الصراع سقطت سهوًا، وهي حرب تشرين أكتوبر ١٩٧٣... لم تسقط سهوًا، بل إن من صنع كامب ديفيد هو الذي أسقطها وأسقط الإنجاز العظيم الذي صنعه الإنسان العربي والمسلم، حين تتاح الفرصة ليقاتل دفاعًا عن أرضه ودينه وأمته... في كامب ديفيد قطع منحى الانحدار العربي والإسلامي نقطة الصفر، وواصل هبوطه بالسالب إلى أن وصل إلى اتفاق أوسلو في سنة ١٩٩٣... إن كل مفردات الهجاء في قاموس العرب لا تكفي لوصف تلك اللحظة الكارثية التي "يتنازل فيها من يملك لمن لا يستحق"، أي أنه أخطر من وعد بلفور، لأن الذي أعطى في ذاك الوعد هو "من لا يملك"، كما قلنا سابقًا، أما في اتفاق أوسلو فإن الذي أعطى هو "من يملك" أي صاحب

الحق وصاحب الأرض!

طبعًا "اتفاق أوسلو" تبعه "اتفاق وادي عربة" بين الأردن وإسرائيل، وسبقهما "اتفاق كامب ديفيد" و"معاهدة الصلح" مع مصر... لينكسر الطوق عن الكيان الصهيوني من الجبهة الجنوبية، والجبهة الشرقية... وباتفاق أوسلو من داخل البيت، ومن داخل القلعة من قبل فلسطين، لكن هل انكسر الطوق من قلب فلسطين؟ ما يقدمه الاستشهاديون في فلسطين، إنهم يحكمون الطوق ويضربون العدو في قلب هذا الكيان الصهيوني وعمقه، ويؤكدون أن الصراع ما زال مفتوحًا طالما أن الشعب الفلسطيني صاحب الحق ما زال حيًّا، وجماهير الأمة ما زالت أفئدتها تنبض باسم القدس مسرى نبيها وقبلتها الأولى...

إذا أردنا أن نجمل عند هذه النقطة، ونخرج بخلاصة من هذا السياق التاريخي والصراع مع الغرب، لا سيما في الشرق الإسلامي، لا بد أن نعود إلى ما أشرنا إليه سابقًا عن دحر الهجمة الصليبية وتحرير بيت المقدس، مقارنة بالهجمة الحالية... قلنا إن فلسطين والقدس يومها شكلت قاعدة لاستنهاض الأمة للجهاد والتحرير... الآن هذا لا يحدث، وليس هناك مشروع نهضة عربي يجعل من فلسطين قاعدة ارتكاز... أيضًا قلنا إن الأمة يومها لم تعترف بالوجود الصليبي على أرض فلسطين، بل اعتبرته استعمارًا طارئًا وغير شرعي، وقاومته على مدار قرنين، حتى تحقق النصر والتحرير. اليوم هناك سباق عربي على الاعتراف بشرعية الوجود الصهيوني في فلسطين. ومن لم يعترف علنًا ويرفع علم الكيان في

عاصمته يمارس ذلك على استحياء أو من تحت الطاولة. لماذا تقع هذه المفارقات الخطيرة؟

بالطبع هناك أسباب كثيرة، لكن السبب الأهم هو في المفارقة الثالثة التي أشرنا إليها سابقًا أن الأمة في زمن الاحتلال الصليبي لبيت المقدس، لم يكن على رأسها حاكم عميل للغرب أو وكيل يعمل لمصلحة الاستعمار على حساب الأمة. اليوم المعادلة معروفة أن الغرب الاستعماري ما كان ليرحل عن بلادنا لو لم يطمئن إلى وجود وكلاء في سدة الحكم والفكر يدينون له بالتبعية في كل شيء. أي أن الاستعمار السياسي والثقافي حل محل الاستعمار العسكري عندما رحل الغزاة، وأعلن ما سمي بالاستقلال لهذه الدولة أو تلك.

يبقى السؤال المهم الذي يجب أن نختتم به عن أفق العلاقة، وأفق هذا التاريخ المرير من الصراع مع الغرب بعد ١١ سبتمبر. هل نحن ذاهبون فعلاً إلى صراع الحضارات، وما هو موقفنا من ذلك؟

للإجابة عن هذا السؤال نقول بإيجاز:

- نحن في قلب "صراع الحضارات"، أي الصراع الحضاري مع الغرب منذ زمن، بل هذا هو برنامج الغرب في مواجهة الإسلام والمسلمين.

- في التعامل مع الغرب نجد أمامنا ثلاثة نماذج أو ثلاثة تيارات في العالم الإسلامي:

أولاً: نموذج الرفض المطلق للغرب الذي يتطور مع الوقت لخوض حرب شاملة لكن غير متكافئة مع الغرب، على خلفية عقائدية. هذا النهج

نحن نتحفظ عليه، لأن الإسلام لم يطلب منا أن نخوض مواجهة شاملة مع العالم، لأن الإسلام في نظرنا لا يبيح لنا القتال والجهاد إلا في حالتين:

١- الدفاع عن الأرض والوطن ضد الغزاة المحتلين، كما هو حال الفلسطيني.

٢- دفع فتنة المسلمين في دينهم، أو إجبارهم على تغيير عقيدتهم، كما حدث في التاريخ الإسلامي، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.

أعرف أن هذا الموضوع شائك ومعقد، وبحاجة إلى بحث مفصل وتأصيل أعمق.

ثانيًا: نموذج القبول المطلق للغرب، والممثل الشرعي لهذا التيار والأسوأ هم الليبراليون العرب الجدد... هم أسوأ بكثير من الليبراليين فيما قبل ضياع فلسطين. هؤلاء تحولوا إلى طابور خامس، ورأس حربة للمشروع المعادي، يعلنون الحرب ضد عقيدة الأمة وتاريخها وتراثها من داخل البيت.

ثالثًا: تيار وسط، لا يرى في الغرب الشر المطلق أو الخير المطلق. وأن بيننا وبين الغرب صراع وملفات كبيرة عالقة في كل مكان: الاستعمار، التبشير، التنصير، التغريب، التبعية، التجزئة، "إسرائيل"، النفط والثروة، العولمة، الهيمنة والسيطرة، والآن العودة إلى الاستعمار الجديد والاحتلال المباشر... هذه القضايا وغيرها نحن فيها الضحية، والغرب يعتبرنا محور الشر، أي نحن الأشرار وهو رسول السلام والمحبة!!

لكن التعايش والتفاهم تحت سقف هذا العالم ليس مستحيلاً، بل مطلوب وضروري، هذا هو العالم الحديث. المهم أن تستجمع الأمة نفسها، وأن تحصي أوراقها وأدواتها في هذا الصراع أو السجال التاريخي، هل تستخدم ما تملك من أوراق القوة لحل قضاياها العالقة مع الغرب، أم أنها تضعها في طاحونته وماكينة نفوذه الجهنمية في العسكرية والإعلامية التي تضعنا أمام خيار؛ إما أن نكون على دين الغرب وثقافته وصورته، أو لا نكون؟!

الإسلام والغرب

جدل الصراع في التاريخ والواقع

إن المحاضر لم يكن يقصد باستعراضه وتحليله زيادة معرفتنا بحد ذاتها، على أهمية هذا القصد، بل بغية الدفع باتجاه بلورة مشروع مواجهة الأمة لهذا الغرب الهاجم، مشروع يرتكز على الوعي والإيمان والإرادة، يدرك أن مدخله التاريخي الأساس وبوصلته هو العمل على تحرير فلسطين.

ولما تتمتع به هذه المحاضرة من أهمية وراهنية، فما زالت الهجمة الغربية مندفعة، وما زالت «إسرائيل» تمثل مقدمتها الملتهبة، ارتأينا، في مؤسسة الأقصى الثقافية، نشرها توخيًا منا لتعميم الفائدة، هذا بالرغم من مرور ما يزيد عن عقد من الزمن على إلقائها. وارتأينا أن ننشرها كما هي، من دون تصرف.

الناشر



بيروت - لبنان
alaqsacf@gmail.com